

محاضرات في العقيدة (٣)

مَنْ العَابِس؟

في قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلّى﴾

محاضرات

الشيخ /أحمد الماحُوزي

إعداد وتدوين

السيّد محمّد الرّضوي السيّد مصْطفى المَزيدي

دار أهلِ الذِّكر

محاضرات في العقيدة [٣]



مَنْ العَابِس ؟

في قوله تعالىٰ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾

محاضرات

الشيخ / أحمد الماحُوزي

إعداد وتدوين

السيّد محمَّد الـرّضوي — السيّد مصْطفىٰ المَزيدي

دار أهلِ الذِّكر


شبكة الفكر
alfeker.net

قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« إن الله يبغض المعبس في وجه إخوانه »

مستدرك الوسائل ج٨/٣٢١ فردوس الخطاب ج١٥٣/١ كشف الخفاء ج٢٨٩/١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ومنقذ الأمة محمد وآله الطيبين الطاهرين .

على الرغم من مُضي أكثر من ألف وأربعمائة عام على ولادة النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وحرمان البشر من التشرّف بالنظر إلى صورته الحسيّة المباركة ، إلا أن ذكراه بقيت وستبقىٰ مادامت السماوات والارض ، وأن نور وجهه الشريف لازال يتلألأ إشراقاً وكمالاً أمام أنظار المسلمين اليوم وغدٍ ، وإلى أن يرث الله الارض ومن عليها .

وذلك لان رسول الله صلى الله عليه واله قمة الكمال الإنساني ، ورمز كل الفضائل ، وآية كل الحسنات ، وتجلي لكل الخيرات ... إنه حقاً هدية الرب للبشرية جمعاء .

ومن هنا صارت كل حركاته وسكناته حجة على البشر ، لأنها تعبير صريح عن تفاصيل الشريعة الربانية ، وتبيان واضح لسنن الدين ، ومرآة صافية للحكمة البالغة .

وقد اختاره الله جل جلاله قدوة وأسوة للبشرية لما امتاز به صلى الله عليه آله من صفات وطبائع فقال ﴿ **لقدْ كانَ لكُم في رسولِ الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجوا الله واليوم الأخر وذكر الله كثيراً** ﴾ [(١)].

ولاجل أن نستضيء بنور النبوة أكثر، ولكي نحذو حذو الرسول صلى الله عليه واله، وأن نخطو خطوات نحوه يتطلب منّا أن نتعرف ولو على بعض جوانب حياته الشريفة، وان نستوعب ولو بعض مواقفه، وأن نهتدي بهداه.

وفي هذا المجال كانت ثَمَّ محاضرات ألقاها سماحة الشيخ أحمد الماحوزي، تعرّض فيها لتفسير الآيات الأُول من سورة «عبس وتولي» وفق مايقتضيه أولا البحث القرآني، وثانياً البحث الروائي.

ولم يكن الغرض الأساسي من تدوين هذه المحاضرات تجريحاً ولا طعناً على أحد، وإنما هدفنا الاساسي أن نبحث عن الحقيقة في أسطورة العبوسة ونسبتها للنبي صلى الله عليه واله أو غيره، حتى يتعرف القارىء والباحث على ماهو الصحيح في المقام.

نسأل الله تعالى أن يتقبل منّا هذا بقبول حسن، إنه ولي التوفيق.

السيد محمد الرضوي   السيد مصطفىٰ المزيدي

---

(١) الاحزاب: ٢١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلّى * أَن جَآءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَـايُدْرِيكَ لَـعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَاعَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾

سبب نزول السورة

ذهب المفسّرون من العامة إلى أن هذه الايات الكريمة نزلت في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله لمّا عبس في وجه عبدالله بن أم مكتوم حينما جاءه وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل فرعون قريش والوليد بن المغيرة العتل الزنيم وغيرهم من صناديد قريش ليقنعهم بالاسلام ويستميل قلوبهم، فقال ابن أم مكتوم: يارسول الله، أقرأني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك وهو لايعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله صلى الله عليه واله قطعه لكلامه وقال في نفسه: الآن يقول هؤلاء الصناديد إنما اتباعه

العميان والعبيد، فعبس في وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم [١].

فنزلت الاية عتاباً على الرسول صلى الله عليه واله بما فعله في حق المسكين ابن أم مكتوم، فكان صلى الله عليه واله حينما يرىٰ ابن أم مكتوم يقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي فيكرمه حتى يستحي ابن مكتوم من كثرة إكرامه له.

وفي رواية عن الخاصة أن هذه الاية نزلت في عثمان بن عفان وابن أم مكتوم.

قال علي بن ابراهيم: كان ابن أم مكتوم مؤذناً لرسول الله صلى الله عليه واله وكان أعمى، فجاء الى رسول الله صلى الله عليه واله وعنده أصحابه، وعثمان عنده، فقدّمه رسول الله صلى الله عليه واله على عثمان، فعبس عثمان في وجهه وتولى عنه، فأنزل الله ﴿عبس وتولى﴾ يعني عثمان ﴿أن جاءه الاعمى * ومايدريك لعله يزكى﴾ أي يكون طاهراً زكياً ﴿أو يذكر﴾ قال: يُذكّره رسول الله صلى الله عليه واله ﴿فتنفعه الذكر﴾ ثم خاطب عثمان فقال ﴿أما من استغنى * فأنت له تصدى﴾ قال: أنت إذا جاءك غني تتصدى له وترفعه ﴿وماعليك ألا يزّكى﴾ أي لاتبالي زكياً كان أو غير زكي، إذا كان غنياً ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ يعني ابن أم مكتوم ﴿وهو يخشى * فأنت عنه تلهّىٰ﴾ أي تلهو ولا تلتفت

(١) الدر المنثور: ج٤١٨/٨ نقلا عن الحاكم وابن مردويه.

إليه [١].

وتحقيق الحال في مقامين :

الاول : فيما يقتضيه البحث القرآني .

الثاني : فيما يقتضيه البحث الروائي .

المقام الاول : البحث القرآني

السورة المباركة جاءت مستنكرة الموقف والحالة التي حدثت مع الاعمى الذي عُبِسَ في وجهه وأُعرض عنه ، فوصفت ذلك المُعَاتَب الذي تولىٰ عن الاعمى وتشاغل عنه بأمور : العبس ، والتولي ، والتصدي للاغنياء ، والتلهي عن الفقراء والمؤمنين ، فقوله تعالى ﴿ عبس وتولىٰ ﴾ إشارة الى الأولين ، وقوله ﴿ فأنت له تصدى ... فأنت عنه تلهى ﴾ إشارة الى الثالث والرابع ، فليس المتصدي لفئة معينة والمتلهي عن فئة أخرى شخص آخر غير العابس ، فظاهر سياق الايات صريح في إتحاد العابس مع المتصدي والمتلهي .

بل منشأ العبس والتولي ليس إلا بسبب الاتصاف بالتصدي والتلهي ، وكأن هاتين الصفتين عادة متبعة وملكة راسخة لدى

(١) تفسير القمي : ٤٣٠ .

العابس، لا أنها موقف وانتهى، والشاهد على ذلك الأتيان بصيغة الفعل المضارع «تصدى» أي تتصدى «تلهى» أي تتلهي [1]، الصريح على الاستمرارية والتكرار، ففرق بين قولنا «عثمان عبس في وجوه المؤمنين» وقولنا «عثمان يعبس في وجوه المؤمنين»، إذ الجملة الاولى لاتفيد إلا تحقق ذلك في الماضي، ولاتدل على أن ذلك عادة متبعة أم لا، بخلاف الجملة الثانية فإنها تدل بصراحة على استمرارية العبس في الوجوه وأن ذلك عادة متبعة وملكة راسخة في عثمان، فتدبر.

فغرض السورة كما أفاد العلامة الطباطبائي عتاب على مَنْ يقدم الاغنياء والمترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الاخرة [2].

تفسير الاية

﴿ **عبس** ﴾ قطّب وكلح، من العَبْس وهو قطوب الوجه وتقبّضه بسبب ضيق الصدر، ورجل عابس أي كريه الملقى الجهم المحيا، ومنه اشتق عبّاس، أي المقطب وجهه أمام أعدائه لكي يرهبهم ويخوفهم [3].

---

(١) تصدى فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الالف للتعذر وحذفت منه احدى التاءين تخفيفاً وكذا تلهى.
(٢) تفسير الميزان: ج ٢١٩/٢٠.
(٣) وباب العبوس: عبس وكلح وكشر وقطّب وبسل وبسر وكره وتجهّم واقمطر واكفهر، راجع الالفاظ المؤتلفة: ج ٢٠٦/١.

قال الاصمعي : إذا زَوَى [١] مابين عينيه فهو قاطب وعابس ، فإذا كشر عن أنيابه مع العبوس فهو كالح ، فإذا زاد عبوسه ، فهو باسر ومُكْفَهِرٌّ ، وفإذا كان عبوسه من الهمِّ فهو ساهم ، فاذا كان عبوسه من الغيظ وكان مع ذلك منتفخاً فهو مُبرطم [٢] .

فكلما تحقق العبس لابد وان يتحقق الضيق الصدري وعدم الاشتهاء النفسي أولا ثم يظهر أثر ذلك على قسمات الوجه ، وهو في بعض موارده ملازم للتكبر والتعالي ولذا قال الله تعالى في حق الوليد بن المغيرة ﴿ ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ﴾ وهو صفة ذميمة ولو وقع من الانسان مرة واحدة ، لاستلزامه الاستهانة والاستخفاف بالاخرين .

العبس وعدم الشعور به

وكون الاعمى لايشعر بالعبوس لايعني عدم قبحه ، فعدم معرفة الانسان من اغتابه لاتجعل الغيبة من المباحات ، مع أنّا لانسلم أن ابن ام مكتوم لم يشعر بعملية العبس من قبل العابس ، إذ لم يقتصر هذا العابس بالعبس بل أعرض وتولى ، فإن كان المعبوس في وجهه أعمى لم ير العبس فإن تولى العابس عنه مما لايخفى عليه ، كما أن رؤية الحاضرين عملية العبس كافية في الحكم بقبحها شعر بذلك المعبوس في وجهه أم لا .

---

(١) أي تقبض وتكلَّح .

(٢) فقه اللغة وسر العربية : ١٣٩ .

العبس وعدم التأذي

وعدم التأذي والتأثّر من العابس لايستلزم عدم قبح التعبيس في وجوه المؤمنين، إذ لعل ذلك بسبب الروحية العالية التي يمتلكها المعبوس في وجهه، فكثير من المؤمنين لايتأذون من غيبتهم واتهامهم وتكفيرهم، وهذا لايعني أن من اغتابهم واتهمهم لم يرتكب الذنب والمعصية، فالأذيّة النفسية شيء والحرمة والاباحة والقبح شيء آخر ولاملازمة ذاتية بينهما، حتى يجزم بعدم القبح والحرمة عند عدم الأذية.

هذا مع ماتكشفه عملية العبس من ضيق نفسي منشأه الخلق السيء والصدر الضيق، فالعتاب في الاية أولا وبالذات على تلك النفسية التي تَتَنَفّر من الفقراء والمؤمنين وتَتَحَبّب الى الاغنياء مهما كانوا.

عبس المضايقة لا الاحتقار

والقول: بأن هذا العبس ليس عبس احتقار، بل هو أقرب الى عبس المضايقة النفسية التي توجد تقلصاً في الوجه عندما يقطع أحد على الانسان حديثه (١).

لايستلزم: رفع القبح من هذه العملية، ولو كان هذا التفصي والهروب من الاشكال صحيحاً لكانت الغيبة وبقية الصفات المذمومة أيضاً كذلك، فَنُقسّم الغيبة الى غيبة منشؤها الحقد

(١) من وحي القران: ج٢٤/٦٦.

والحسد، وغيبة منشؤها الضيق النفسي بأفعال الاخرين، فلنلتزم بحرمة الاولى دون الثانية، مضافا إلى أن العابس لم يكتف بالعبس بل اعرض وتولى وكان ممن يتصدى للاغنياء ويتلهى عن الفقراء الخاشعين المؤمنين [1].

﴿ **وتولى** ﴾ أي أعرض بوجهه، كقوله تعالى ﴿إلا من تولى وكفر﴾ وقوله ﴿ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ولعل منه ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ كناية عن الفرار من الزحف اذ يلازمه عادة الاعراض وجهاً عن الاعداء، والذي يقتضيه سياق الايات أيضا أن التولى في المقام فعل سلبي آخر صدر من العابس، فهو على غرار قوله تعالى ﴿ ثم عبس وبسر ﴾.

﴿ **أن جاءه الاعمى** ﴾ أي عبس وتولى بسبب مجيء الاعمى، والاعمى في المصطلح القرآني عادة مايكون بمعنى أعمى القلب وفاقد الايمان المشار إليه في قوله تعالى ﴿ فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [2] وقوله ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الاخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ [3] وقوله ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ [4].

وعليه فالاعمى هنا ليس بالضرورة أن يكون اعمى البصر

---

(١) ولو كان هذا العبس عبس مضايقة ولا محذور فيه فَلِمَ هذا العتاب الشديد اللهجة على شيء ليس فيه محذور، وراجع صفحة: ٣٢.

(٢) الحج: ٤٦.

(٣) الاسراء: ٧٢.

(٤) الرعد: ١٩.

وفاقد العينين ، بل يمكن ان يكون المقصود منه أعمى القلب والايمان ، وتتبع موارد استعمال هذه الكلمة في سائر آيات الذكر الحكيم لعله يرجّح كون المراد من الاعمى في هذه السورة هو أعمى القلب ، إذ هو الاطار العام لاستعمال هذه اللفظة .

إن قلت : ان بقية آيات السورة قرينة على أن المراد من العمى هو العمى الظاهري ، مضافا الى أن السياق العام للاية كاشف عن واقعة حصلت فنزلت هذه السورة .

قلت : بل العكس هو الصحيح ، إذ قوله ﴿ ومايدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ قرينة على أن هذا الاعمى إنما جاء طلباً للتزكية ـ وهو الايمان والاسلام ـ او التذكرة ، والانسان لايطلب الشيء إلا بعد فقده ، وفقد ذلك هو العمى باصطلاح القران .

فلو خلّينا والظهور القرآني لايمكن أن نجزم بكون الاعمى من كان فاقداً للبصر الظاهري ، بل هو أعم من ذلك ومن العمى القلبي ، فتخصيص او تقييد الاية بالعمى الظاهري بحاجة الى دليل ، وترجيح أن العمى القلبي هو المقصود من الاية له وجه وجيه ولا مجازفة فيه .

ومن جزم بكون الاعمى هو اعمى البصر فَلِمَكان الروايات المصرحة بنزولها في ابن ام مكتوم ، وبحثنا الان في ما هو مقتضى الظهور القرآني وتفسير القرآن بالقرآن ، وسيأتي البحث في

الظهور ومقتضى البحث الروائي وانسجامه مع ما استظهرناه من كتاب الله او عدم انسجامه.

﴿ ومايدريك لعلّه يزّكى ﴾ أي لاتدري لعل هذا الاعمى يتزكى ويتطهر بالعمل الصالح، والتزكية هي التخلية والاقتلاع عن الآثام والمعاصي وعلى رأسها الكفر والشرك بالله تعالى.

﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ بأن يتحلى بالطاعات والاعمال الصالحة والصفات الحسنة إن كان زكياً مؤمناً ولم يرتكب الموبقات، فالآيتان تشيران الى حالتي التخلية والتحلية، والمقصود من الاولى التخلية والاقتلاع عن المعاصي والموبقات المسمات في الذكر الحكيم بـ«التزكية»، والثانية هو التحلي والاتصاف بالسمات الحسنة والاعمال الصالحة حتى تكون نفسه صالحة [1].

ومن ذلك يعلم أن مهمة الرسول الاكرم صلى الله عليه واله تزكية البشر المشار إليه في قوله تعالى ﴿ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾، وتذكرة المؤمنين المشار إليه بقوله ﴿ فذكر إن نفعة الذكرى ﴾ وقوله ﴿ فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر ﴾ وقوله ﴿ فذكر إن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾.

---

(١) وللمزيد من التفصيل في مصطلحي «التخلية والتحلية» راجع ماذكرناه في «الاسفار الاربعة العرفانية» صفحة: ١١.

﴿ **أما من استغنى** ﴾ أي من كان ذا ثروة وغنى ، وقيل أي من استغنى عن الايمان وعمّا عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القران [1] واكتفى بماله .

﴿ **فأنت له تصدّىٰ** ﴾ أي تتصدى وتتعرض بالاقبال عليه والاهتمام به ، وعن ابن عباس : تصدى تقبل عليه بوجهك ، فالتصدي هو إقبال الانسان على الشيء بكلّه قلباً وقالباً [2] .

قال الزجاج : الاصل تتصدىٰ ولكن حذفت التاء الثانية لإجتماع تاءين ، ومن قرأ تصدىٰ بإدغام التاء فالمعنى أيضا تتصدى إلا أن التاء أدغمت في الصاد لقرب مخرج التاء من الصاد [3] .

وقد قرأ ابن كثير ونافع «تصَّدىٰ» بتشديد الصاد ، وقرأ عاصم وابو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي «تَصَدّىٰ» بفتح التاء والصاد وتخفيفها ، وقرأ أبي بن كعب وابو الجوزاء وعمرو بن دينار «تتصدى» بتاءين مع تخفيف الصاد ، والمعنى واحد في

---

(١) تفسير أبي السعود ج ١٠٨/٩ ، وغيره .

(٢) قال القرطبي في تفسيره ج ٢١٤/١٩ : «فأنت له تصدى» أي تعرض له وتصغي لكلامه والتصدي الاصغاء .. وأصله تتصدد من الصد وهو ما استقبلك وصار قبالتك يقال داري صدد داره أي قبالتها نصب على الظرف ، وقيل من الصدى وهو العطش أي تَتَعرض له كما يتعرض العطشان للماء والمصاداة المعارضة .

(٣) زاد المسير : ج ٢٨/٩ .

الكل [1]، وقرأ ابن مسعود وابن السميفع والجحدري «تُصَدىٰ» بتاء واحدة مضمومة وتخفيف الصاد [2]، وقد نسبت هذه القراءة للباقر عليه السلام [3]، وسيأتي وجه متين لهذه القراءة.

﴿ وماعليك ألا يزّكىٰ ﴾ ذهب مشهور المفسرين من العامة أن معنى الاية: أن وظيفتك الابلاغ سواء آمن السامع أم لم يؤمن فلا يلزمك شيء من عدم تطهره وإيمانه [4].

وذهب علي بن ابراهيم القمي في تفسيره أن معنى الاية هكذا: أي لاتبالي زكياً كان أو غير زكي إذا كان غنيّاً [5].

---

(١) وظاهر «تفسير الامثل» أن «تصدى» فعل أمر، فأنت له تصدى بمعنى توجه إليه وجاهد في هدايته على ما أصابته الثروة من غرور، وبطلانه أوضح من أن يخفى، لامور من أهمها: المقابلة بين «تصدى» و «تلهى»، فالايات في سياق الاخبار لا الانشاء، فـ«تصدى» فعل مضارع لا فعل أمر.

(٢) راجع زاد المسير: ج٢٧/٩ وغيره.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ج ٥٦/٣١، روح المعاني: ج ٤١/٣٠.

(٤) تفسير الطبري المتوفي سنة ٣١٠: ج ٥٢/٣٠، تفسير البغوي: ج٤٤٦/٤، فتح القدير: ج٣٨٣/٥، زاد المسير: ج٢٧/٩، واختاره من الخاصة: الطبرسي في تفسيريه ومغنية في الكاشف ومكارم في الأمثل، وفي تفسير من وحي القران: «وماعليك ألا يزكى» فلن تتحمل أية مسؤولية من خلال ابتعاده عن الخط المستقيم، وتمرده عن تطلعات الروح الى آفاق الطهارة وسماوات الصفاء لانك لم تقصر في الابلاغ، ولم تدخر أي جهد فيما حركته من الوسائل التي تملكها وفيما استخدمته من الاساليب التي تحركها في اتجاه التزكية للناس جميعاً، وقد سمعوا ذلك كله وأصروا على الاستكبار والتمرد ... الخ.

(٥) واختاره الفيض الكاشاني والمرتضى الكاشاني المتوفي سنة ١١١٥ في تفسيره المعين والطهراني في مقتنيات الدرر والشيخ الكرمي في تفسيره المنير وغيرهم،

قال العلامة الطباطبائي : قيل : ما نافية ، والمعنى ليس عليك بأس أن لايتزكى حتى يبعثك الحرص على اسلامه الى الاعراض والتلهي عمن أسلم والاقبال عليه ، وقيل : ما للاستفهام الانكاري ، والمعنى وأي شيء يلزمك أن لم يتطهر من الكفر والفجور فانما أنت رسول ليس عليك إلا البلاغ ، وقيل : المعنى ولا تبالي بعدم تطهره من دنس الكفر والفجور ، وهذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثم الذي قبله ثم الذي قبله (١) .

ووجه الانسبيّة والتعيّن ثلاثة أمور :

الاول : ما أشار إليه قدس سره من كون الايات في مقام العتاب وسياق التوبيخ ، فلو كانت الاية في مقام بيان حرص العابس والمتولي على اسلام الاخرين لكان ذلك مدحاً ومنقبة له ، فلا تتناسب مع العتاب والذم والتوبيخ ، فتكون كقوله تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٢) .

الثاني : ان تصدي وتعرض العابس إنما هو لمكان صفة

---

(١) تفسير الميزان : ج ٢٠/ ٢٢٠ . وهو ظاهر السيد المرتضى .

(٢) والحرص على إسلام الناس وهدايتهم مما لاشك في حسنه ومطلوبيته ، بل من الصفات الكمالية الممدوح بها النبي الاميّ صلى الله عليه واله في القرآن الكريم ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ فهو صلى الله عليه واله يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته وحريص على الناس وهدايتهم ، أما تعامله مع المؤمنين فالاهتمام والعناية والرأفة والرحمة بهم تفوق حد التصور ، كيف !! وهو الذي بعث رحمة للعالمين .

الاستغناء لاغير كما هو صريح قوله ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أي أما المتصف بالغنى فله تتعرض، والتصدي أما أن يكون الهدف منه طلب الهداية للغني أو لاجل الاستفادة المادية منه، وإطلاق الاية يشمل الحالتين.

ولذا نجد بعض المسلمين والصحابة في الصدر الاول يتصدون لهداية الاغنياء من الكفار والمشركين، ويتركون هداية الفقراء والمستضعفين، بل هذا السلوك متخذ عند أكثر الرساليين واصحاب الدعوات والمبادى على طوال التاريخ، من تركيزهم على الاغنياء واصحاب الجاه والثروة والسمعة الاجتماعية وتركهم للفقراء والمستضعفين، توهماً وظناً بان هداية اصحاب الاموال والسمعة هي المجدية لنشر الرسالة والهداية.

وهناك سلوك آخر لدى الكثير ومنهم بعض الصحابة، من تصديهم للاغنياء وأصحاب الجاه طمعاً في أموالهم أو مداهنة لهم، مع عدم المبالاة بايمانهم أو محاولة هدايتهم.

فقوله تعالى ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ بيان حال السلوك الاول، وقوله ﴿ وماعليك ألا يزكى ﴾ إشارة الى السلوك الثاني، وتأكيد على أن هذا العابس لايتصدى للاغنياء ويترك الفقراء من أجل هدايتهم بل يتصدى لهم لمكان غناهم ولا يهمه بعد ذلك آمنوا أو لم يؤمنوا، وكلا السلوكين يرفضهما القرآن

ويتشدد العتاب والتوبيخ على أصحاب السلوك الثاني (١).

ومن ذهب من الخاصة تبعاً لعامة المفسرين من كون معنى الاية أي ليس عليك حساب وبأس في عدم إيمانهم وإسلامهم بعد أن بلّغت ماعليك، فإنما كان لتوهم كونها نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وأنه هو العابس والمتولي والمتصدي والمتلهي، فالدخول بهذه العقلية في تفسير الاية هو الذي أفضى وأنتج هذا المعنى من التفسير، ولو كان ـ وهو محال ـ كون العابس والمتولي والمتصدي والمتلهي هو الرسول لكان هذا التفسير هو المتعيّن لاغير (٢).

---

(١) أما الامر الثالث فراجع صفحة ٣١ خامساً.

(٢) ولذا لابد في عملية التفسير من ترك الاعتقادات والمرتكزات الفكرية والثقافية ـ وكذا الروايات ـ على جانب والدخول في تفسير القران بعيدا عن كل ذلك، حتى يتم عرض الافكار والاراء والاعتقادات والروايات على القرآن، لا العكس أو محاولة التوفيق مهما امكن بين مايعتقده الانسان وما في القران، ولو كان التوفيق خلافاً لمقتضى الظهور والصراحة القرانية.

ولذا ورد عنهم عليهم السلام كما سيأتي ماخالف كتاب ربنا لم نقلْه، وفي رواية أخرى فهو زخرف، وضابطة معرفة صحة الرواية وكذبها كما جاء في الروايات عنهم هو عرضها على كتاب الله، والعرض لايتحقق إلا بعد معرفة المراد القرآني.

وعليه فلا بد أولا من معرفة المراد القرآني وتفسير القران بالقران، ثم بعد ذلك الانتقال الى خطوة أخرى وهي تفسير القران بالروايات المأثورة والاحاديث المروية، وملاحظة هل أن ما استُظهر من كتاب الله من معاني تؤيده الروايات ويقرّه العقل ام لا، هذه هي الخطوات السليمة لمعرفة واستيعاب القران الكريم، واقحام الخطوة الثانية لترجيح أحد المعاني المتسظهرة في الخطوة الاولى على بقية المعاني

ومثله مافي «من وحي القران» من قوله: «إن مدلول الايات يوحي بأن النبي صلى الله عليه واله كان يستهدف من حديثه مع هؤلاء الصناديد تزكيتهم الفكرية والروحية والعملية، بعيداً عن مسألة الاهتمام بغناهم من ناحية ذاتية»[1].

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه واله كذلك ورب الكعبة، ولكن الذي نستوحيه من الايات أن الاهتمام إنما هو للغني لغناه، وإلا !! الاهتمام للغني لتزكيته مع عدم الطمع في ماله مما يقبح العتاب عليه والتوبيخ فيه، وكيف يعاتب على صفة لا يتخلق بها الا من كان ذو حظ عظيم وخلق عال وإيمان عميق، والذي أجبره على هذا «الاستيحاء» هو دخوله في تفسير الايات بعقلية أنها نزلت في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، ولو افترضنا محالا أنها نزلت فيه صلى الله عليه واله لكان ماقاله هو الحق الذي يجب أن يتبع.

﴿ وأما من جاءك يسعىٰ وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ قرأ ابن مسعودٍ وابن مصرف وابو الجوزاء «تَتَلهى» بتاءين، وقرأ أبي بن كعب وابن السميفع والجحدري «تُلهى» بتاء واحدة خفيفة

والاحتمالات هو منشأ أكثر الاشتباهات التي وقع فيها المفسرون والفقهاء والمجتهدون.

(١) من وحي القران: ج ٦٧/٢٤، ومثله مافي أعيان الشيعة من كون تصدي العابس للاغنياء ليس لغناهم وتلهيه عن الفقراء لا لفقرهم وإنما لقطعهم حديثه مع من يرجو إسلامه.

مرفوعة ، قال الزجاج : أي تتشاغل عنه ، يقال لهيت عن الشيء ألهى عنه إذا تشاغلت عنه [1] ، فالتلهي هو تعمد التشاغل وقصد الاعراض ، فهو قبال التصدي الذي هو تعمد التعرض وقصد الاقبال .

ومن خلال المقابلة بين التصدي والتلهي يستظهر أن هؤلاء الساعين نحو الخشوع هم من الفقراء والمستضعفين ، فالاية وإن لم يكن لسانها «وأما ذو العالة والفقير فأنت عنه تلهى» لكن من خلال التقسيم المردد بـ«إما» يعرف أن من سمات هؤلاء الساعين نحو الخشوع هي الفقر والعالة والاحتياج .

التصدي = المحاولة الرسالية

وما في : تفسير «من وحي القرآن» من كون التصدي بمعنى المحاولة الرسالية وبذل الجهد في سبيل تغيير أولئك المترفين والمستكبرين ، والسعي لاصلاحهم وتزكيتهم حيث يقول ﴿ فأنت له تصدى ﴾ لتحاول بجهدك الرسالي أن تمنحه زكاة الروّح وطهارة الفكر ، فيما تحسبه من النتائج الكبيرة لذلك على مستوى امتداد الاسلام في قريش [2] .

كلام متين : فإن الرسول صلى الله عليه واله لم يألُ جهداً في هداية قومه ، والسعي بشتى الطرق والوسائل لهدايتهم وإدخالهم في دين الله ، لكن صريح الاية لايساعد على ذلك حتى وان قلنا

---

(١) زاد المسير : ج٩/٢٧ .

(٢) من وحي القرآن : ج ٢٤/ ٧٤ .

تنزلاً أنها نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وأنه هو المعني بها [1]، إذ التصدي للاغنياء والمترفين في الاية يقابله التلهي عن الفقراء والمعدمين [2]، فلوجه المقابلة نعرف أن التصدي هو الاهتمام والتقدير والاحترام للاغنياء، ويقابله التلهي عن الفقراء.

ولو كان التصدي بمعنى المحاولة الرسالية لكان الرسول له محاولة رسالية لهداية المترفين دون المستضعفين مع أنه مأمور بأن يساوي في دعوته بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسيد والعبد والرجل والمرأة والصغير والكبير، ثم الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم، فتفسير التصدي بمعنى المحاولة الرسالية ليس تفصياً عن المحذور، فهو من قبيل تغيير قولة عمر بن الخطاب المشهورة في رزية الخميس «ان الرجل ليهجر» الى «ان رسول الله غلب عليه الوجع»، وقولنا في المجنون بأنه مصاب بمرض عقلي، فالنتيجة واحدة ولكنْ وقع اللفظ على القلب أهون.

وعليه: فلا بد أن يكون معنى التصدي في الاية بمعنى التعرض والاهتمام والاحترام، والتلهي بمعنى التشاغل وعدم

---

(١) ومنشأ تفسير التصدي بما ذكر لقناعته بنزول الاية في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، فهو المخاطب والمقصود معاً.

(٢) أما من استغنى ... وأما من جاءك يسعى وهو يخشى.

المبالات ، فالاية تدعو الى المساواة في الدعوة الى الاسلام ، إذ هو الواجب الملقى على عاتق الرساليين ، وهداية الناس وعدمها بيد الله تعالى المشار إليه في قوله ﴿إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ، فليس الاية فقط في مقام توبيخ العابس بل حتى لو لم يتحقق العبس لابد من المساواة في الدعوة والتبليغ .

عتابٌ وتوبيخ

قال العلامة الطباطبائي : وفي الايات الاربع عتاب شديد ويزيد شدة بإتيان الآيتين الاوليين في سياق الغيبة ـ ضمير الغائب ـ لما فيه من الاعراض عن المشافهة والدلالة على تشديد الانكار وإتيان الآيتين الاخيرتين في سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ وإلزام الحجة بسبب المواجهة بعد الاعراض والتقريع من غير واسطة .

قال : وفي التعبير عن الجائي بالاعمى مزيد توبيخ لما أن المحتاج الساعي في حاجته إذا كان أعمى فاقدا للبصر وكانت حاجته في دينه دعته الى السعي فيها خشية الله كان من الحري أن يُرحم ويخص بمزيد الإقبال والعطف لا أن ينقبض ويعرض عنه [١] .

وقال ابن زيد لو أن رسول الله صلى الله عليه واله كتم من

---

(١) تفسير الميزان : ج ٢١٩/٢٠ .

الوحي شيئاً كتم هذا عن نفسه [١].

ومن كل مامر تعرف وهن من قال: أن الايات لا لَوْم فيها ولا عتاب على النبي ولا على الاعمى، وإنما هي في واقعها تحقير وتوبيخ للمشركين الذين أقبل عليهم النبي صلى الله عليه واله بقصد أن يستعملهم ويرغبهم في الاسلام [٢].

قلت: أما الاعمىٰ فكما قال، وأما العابس فالقول بعدم توجه العتاب واللوم إليه سدٌّ لحجية ظواهر القران بل صريحه، واما المشركين فلا تعرض لهم في الاية من قريب ولا من بعيد، ومنشأ تصريحه بذلك ـ هو كما قلنا في غيره ـ دخوله في تفسير الاية بعقلية أنها نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله.

سياق الايات وتحديد العابس

هذا فيما يرتبط بصفات العابس، أما من هو العابس، فسياق الايات لايدل على أن العابس هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، إذ قوله «عبس وتولى» فعلان ماضيان والضمير «هو» للغائب، فلو كان العابس هو الرسول صلى الله عليه واله لقال تعالى «ياأيها النبي لِمَ عبست وتوليت أن جاءك الاعمى [٣]،

(١) تفسير الطبري: ج ٣٠/٥٠، وكلامه صحيح اذ الاية صريحة على أنها في مقام العتاب والتوبيخ، لكن تطبيقها على الرسول لم يصب فيه.
(٢) تفسير الكاشف للشيخ المرحوم جواد مغنية العاملي: ٧/٥١٠.
(٣) على غرار قوله تعالى ﴿ ياأيها النبي لِمَ تحرّم ما أحل الله لك ﴾.

ومايدرك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى» ولا إخلال بالبلاغة والفصاحة حينما يُأتى بضمير المخاطب كما لا يخفى .

ان قلت : انما لم يأت بضمير المخاطب إجلالا للرسول الاكرم صلى الله عليه واله ، إذ العبوس مما لا ينبغي أن يصدر عنه .

قلت : قوله تعالى ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ... فأنت عنه تلهى ﴾ أشد تقريعاً وعتاباً وتوبيخاً فَلِمَ جيىء فيها بضمير المخاطب ، فمن باب إجلال النبي صلى الله عليه واله كان ينبغي أن يأتى بها بضمير الغائب كعبس وتولى .

ضمير المخاطب

ودعوى : أن قوله تعالى ﴿ فأنت له تصدى ... فأنت عنه تلهى ﴾ المخاطب به هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله ، فالمقصود من «أنت» أي أنت يارسول الله ، وبما أن المتصدي للاغنياء والمتلهي عن الفقراء متحد مع الذي عبس وتولى لاشخص آخر ينتج أن الرسول الاكرم صلى الله عليه واله هو الذي عبس وتولى .

نزل القران بإياك اعني واسمعي ياجارة (١)

في غاية الفساد : وذلك لان القرآن كله خطاب للرسول الاكرم صلى الله عليه واله إذ هو الواسطة بين الله وخلقه ، ولكن هذا لايعني بالضرورة أن يكون هو المقصود من الاية ، فلا بد من التفريق بين كونه خطاباً له وبين كونه المقصود من الخطاب وفيه

---

(١) وهي من القواعد التي ينبغي أن يلتفت إليها في تفسير القران الكريم .

نزلت الاية [1].

ولبيان ذلك إليك آيات من القران الكريم تتقرر هذا المطلب وثتبته:

١ / قوله تعالى ﴿ ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه واله، ولكن ليس هو المقصود من هذا الخطاب، إذ لم يكن ثَمَّ أبٌ وأمٌّ للرسول آنذاك.

٢ / وقوله تعالى ﴿ وانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ فليس هو المقصود بهذا الحكم وإن كان هو المخاطب، إذ رسول الله كما هو مسلم عند الكل له الحق في أن يتزوج أكثر من أربع.

٣ / وقوله تعالى ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ فالخطاب وإن كان متوجاً الى الرسول الاكرم صلى الله عليه واله ولكن ليس هو المقصود منه، إذ قد عصم الله تعالى رسوله من الذنب الصغير فكيف بالشرك العظيم.

وغيرها من الايات الكثيرة جداً، فالقران الكريم كما في

---

(١) فتعجب بعض المعاصرين ـ في أنه إذا كانت الاية غير متوجة ومخاطبة للرسول فلمن هي أذن مخاطبة؟ هل هي متوجهة الى شخص مجهول من بني أمية ـ منشأه عدم التفريق بين المخاطب والمقصود من الخطاب، وأنه ليس بالضرورة أن يكون المخاطب هو المقصود من الخطاب، ومن يلتزم بان المخاطب هو المقصود يقحم نفسه في نسبة الذنب والمعصية والجهل للرسول الاكرم صلى الله عليه واله وهذا مالايقبله المسلم العادي.

الروايات نزل بـ« إياك أعني واسمعي ياجارة »[1] وهو مثل يضرب لمن يتكلم بكلام يريد به غير المخاطب ، وما أكثره في القران .

فعن علي بن محمد بن الجهم عن ابي الحسن عليه السلام مما سأله المأمون : فقال : أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم ﴾ .

قال الرضا عليه السلام : هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي ياجارة ؛ خاطب الله عز وجل بذلك نبيه صلى الله عليه واله وأراد به أمته ، وكذلك قوله تعالى ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ﴾ قال : صدقت يابن رسول الله[2] .

وعن محمد بن سعيد الاذخري وكان ممن يصحب موسى بن محمد بن علي الرضا أن موسى اخبره ان يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل فيها ، وأخبرني عن قول الله عز وجل ﴿ فإن كنت في شك مما نزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك ﴾ من المخاطب بالاية فإنك ان المخاطب النبي صلى الله عليه واله

---

(١) تفسير العياشي ١٠/١ والكافي : ٦٣١/٢ حديث ١٤ معتبرة عبدالله بن بكير ، ثم قال الكليني وفي رواية اخرى عن ابي عبدالله عليه السلام قال : معناه ماعاتب الله عز وجل به نبيه صلى الله عليه واله فهو يعني به ماقد مضى في القران مثل قوله ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ﴾ عنى بذلك غيره .
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج ٤٠٨/١ ، باب ٣٧ حديث ١ .

أليس قد شك فيما أنزل الله عز وجل إليه ، فإن كان المخاطب به غيره فعلى غيره اذا انزل الكتاب .

قال موسى : فسألت اخي علي بن محمد الهادي عليهما السلام عن ذلك قال : اما قوله ﴿ فان كنت في شك ﴾ فإن المخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه واله ولم يكن في شك مما انزل الله عز وجل [1] ، ولكن قالت الجهلة : كيف لا يبعث إلينا نبيا من الملائكة ، إنه لم يفرق بينه وبين غيره في الاستغناء عن المأكل والمشرب والمشي في الاسواق فأوحى الله عزوجل الى نبيه ﴿ فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك ﴾ بمحضر من الجهلة هل يبعث الله رسولا قبلك الا وهو يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ولك بهم أسوة وإنما قال : وإن كنت في شك ولم يقل ولكن ليتبعهم كما قال له صلى الله عليه واله فقل ﴿ تعالوا ندع ابناءنا... فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ ولو قال : تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله علكيم لم يكونوا يجيبون للمباهلة ، وقد عرف أن نبيه صلى الله عليه واله مؤدى عنه رسالته وماهو من الكاذبين ، وكذلك عرف النبي صلى الله عليه واله أنه صادق فيما يقول ولكن أحب أن ينصف من نفسه [2] .

---

(١) وهذا موضع الشاهد ، فهو صلى الله عليه واله المخاطب ولكنه ليس المقصود من الخطاب ، لكونه من الشك ، وهل يمكن أن يبعث الله رسولا شاكاً في رسالته ؟!!

(٢) علل الشرائع : ١٥٦ باب ١٠٧ حديث ١ .

وفي صحيحة ابراهيم بن عمر رفعه الى أحدهما في وقول الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه واله ﴿ فإن كنت ... ﴾ قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله: لا أشك ولا أسأل [١].

فمن حيث السياق لا يمكن الجزم ـ بل الظن ـ بكونها نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، إذ القران مليىء بالايات النازلة بنحو «إياك اعني واسمعي ياجارة» [٢]، ومن يتتبع الخطابات القرآنية يستظهر أنه حينما يكون المخاطب والمقصود هو النبي صلى الله عليه واله يكون ذلك الخطاب محفوف بهالة من الاحترام والتقدير وعادة مايكون بهذا التعبير «ياأيها النبي، يا أيها الرسول».

والعجب: من البعض احتمل او رجّح كون الاية نازلة في النبي صلى الله عليه واله وأنه هو العابس في وجه ابن أبي مكتوم بشهادة قوله تعالى ﴿ ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ [٣] وقوله ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ [٤]، فنسب الى

(١) علل الشرائع: ١٥٧ باب ١٠٧ حديث ٢.
(٢) وسيأتي بيان بعض الثمار من كون القران نازل بهذه الطريقة فانتظر.
(٣) الانعام: ٥٢. (٤) الكهف: ٢٨.

الرسول من دون ان يشعر الطرد المفضي الى الظلم كما هو ذيل الاية وإطاعة الغافلين عن ذكر الله [1].

وصفوة القول: أنه لو جعلنا كل آية فيها عتاب وتأنيب وتوبيخ أن المخاطب والمقصود بها هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله لكانت صفاته بأبي وأمي في القران الكريم مايلي : العابس ، الطارد ، مريدٌ لزينةِ الحياة الدنيا ، مطيع للغافلين ، شاك فيما أنزل عليه ، الراكن لعبدة الاوثان والاصنام ، المذنب ... الخ .

مع ان القران في آيات أُخر وصفه بأنه : رحمة للعالمين ، الرؤوف ، العطوف ، الرحيم ، ذو الخلق العظيم ، مزكي أنفس الخلائق ومعلمهم الكتابة والحكمة ، وهذه لاتتلاءم مع ماتقدم من صفات وسمات .

معنى الآيات وتحديد العابس

هذا كله من حيث سياق الايات وقد عرفت أنها لاتدل على ان المقصود هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله ، أما من حيث المعنى فلا شك في كون العابس والمتولي والمتصدي والمتلهي غيره صلى الله عليه واله لامور :

الاول : أن العبس وهو التقطيب في الوجه صفة ذميمة ـ كما تقدم ـ وُصف بها في القران الكريم العتل الزنيم المشرك الكافر

---

(١) هذا وقد ورد في روايات العامة أن الطارد للمؤمنين هو عمر بن الخطاب وسيأتي ذكرها فانتظر .

الوليد بن المغيرة في قوله ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ فلا يمكن أن يتلبس بها الرسول الاكرم صلى الله عليه واله ولو لمرة واحدة، كيف !! وهو الذي قال عنه القرآن ﴿ وإنك لعلى خلقٍ عظيم ﴾ وقوله ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾.

وسُئلت عائشة عن خلقه فقالت: كان خلقه القران، فمن يكون خلقه عظيماً لايمكن ان يتلبس بالضيق القلبي والعبس والتقطيب في وجوه المؤمنين، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [1] والرحمة والتعبيس والتقطيب لايجتمعان دوماً وأبداً.

كما يتنافي مع قوله صلى الله عليه واله في الحديث المعروف عند الخاصة والعامة «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقول الصادق عليه السلام «إن الله عز وجل أدب نبيه فأحسن أدبه فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [2].

هذا وقد عُرف من أخلاقه صلى الله عليه واله أنه ماكان ليومىء على كافر قد استحل قتله وأُهدر دمه، فكيف يعبس في وجه المؤمن والخاشع.

---

(١) التوبة: ١٢٨، فهو صلى الله عليه واله حريص على الناس جميعاً المشرك وغيره، ولكنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وعبسه في وجوه المؤمنين خلاف مقتضى الرأفة والرحمة.

(٢) الكافي: ج ١/ باب ١٠٨.

فحينما أهدر صلى الله عليه واله دم عبدالله بن أبي سرح فبعد فتح مكة غيّبه عثمان حتى اطمأن الناس ثم أحضره عند رسول الله صلى الله عليه واله وطلب له الامان، فصمت رسول الله صلى الله عليه واله طويلاً ثم آمنه، فأسلم وعاد، فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه واله لاصحابه: لقد صمت ليقتله أحدكم، فقال أحدهم: هلا أومأت إلينا؟ فقال: ماكان للنبي أن يقتل بالاشارة إن الانبياء لايكون لهم خائنة الاعين (١).

الثاني: أن العابس كما تقدم هو المتصف بكونه متصدياً للاغنياء ولاهياً عن الفقراء والمؤمنين، والرسول الاكرم يجلّ أن يكون خلقه كذلك، فلا فرق عنده بين العبد والسيد والعربي والاعجمي، بل عمدة المسلمين آنذاك كانوا من العبيد والمستضعفين، فكونه يَتصدى للاغنياء ويَتلهى عن الفقراء ليس من أخلاقه الكريمة العظيمة (٢) وعصمته المطلقة تأبى ذلك.

---

(١) الكامل في التاريخ: ١٦٦/١، تاريخ ابن خلدون: ٤٦٠/٢، تاريخ اليعقوبي: ٦٠/٢.

(٢) ولو قيل لمن أثبت أن العابس والمتصدي والمتولي هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله: أنك ممن تتصدى للاغنياء وتتلهى عن الفقراء لَمَا قَبِلَ ذلك في حق نفسه ولو لمرة واحدة ولانزعج من هذه النسبة، ولو أن مخبراً أخبرنا بأن المرجع الفلاني او العالم الكذائي عبس في وجه بعض المؤمنين الفقراء وتلهى عنه، لنسبناه الى الاشتباه أو كذبناه في دعواه، فكيف نقبل ذلك في حق نور الانوار وحجة الجبار والاية المخزونة والرحمة الموصولة، الذي لولاه لما خلق الله السماوات والارض، ولما خلق الافلاك وبرأ النسمات، الموصوف في القرآن الكريم بالخلق العظيم والرحمة المبسوطة على العالمين جميعاً.

ولو تنزلنا وجارينا من يقول بأن العبس لايتنافى مع اخلاقه الكريمة ولايقدح في عصمته، مع ذلك لايمكن أن نقول بأنه هو المقصود بالعبس في هذه الايات الكريمة، لكون منشأ العبس والتولي ليس إلا حب التصدي للاغنياء ـ بعد أن بيّنا أن العابس هو المتصدي والمتلهي لاشخص آخر ـ وهذا الحب يلازمه التنفّر عن الفقراء والمستضعفين.

الثالث: أن الرسول مأمور بخفض الجناح للمؤمنين ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾، ومأمور بالاعراض عن المشركين ﴿ فاصدع بما تأمر وأعرض عن المشركين ﴾ وكلا الايتين من سورة الحجر [1] وقد نزلت قبل سورة عبس، فالالتزام بكون الاية نازلة في الرسول معناه أن الرسول صلى الله عليه واله أعرض عن المؤمنين وخفض الجناح للمشركين.

الرابع: كان بإمكان الرسول صلى الله عليه واله أن يلفت انتباه ابن ام مكتوم أنه مشغول مع القوم وأن يأتي له في وقت آخر حتى يكون بخدمته، لا أن يعبس في وجهه ويعرض عنه، ولو كان هكذا لما توانىٰ ابن ابي مكتوم في تلبية طلب الرسول صلى الله عليه واله، لانه يرجو من كل قلبه أن يُسلم صناديد قريش

---

(١) قال تعالى في سورة الحجر ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين وقل إني انا النذير المبين ... فاصدع بما تأمر وأعرض عن المشركين ﴾، ومثلها قوله تعالى في سورة القلم ﴿ فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾.

ويتشهدوا الشهادتين .

كما أن كل من له حظاً من الاخلاق الحسنة إذا كان مشغولا مع قوم في حديث مهم ودخل عليه من يقطع كلامه مع القوم يلتفت الى المعترض ويقول له بأدب ولطف : لو سمحت دعني والقوم ، وأجل حديثك الى وقت آخر ، فكيف بالموصوف في القرآن بأنه خلقه عظيم وانه شفوق وعطوف ورؤوف بالمؤمنين .

الخامس : لو كان المقصود من الايات هو النبي صلى الله عليه واله فكيف نلائم بين قوله تعالى مدحاً للرسول ﴿ هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ (١) وبين قوله ﴿ وماعليك ألا يزّكى ﴾ (٢) ، إذ هو صلى الله عليه واله مخاطب ومقصود بتزكية الناس جميعاً فكيف يخاطب في هذه السورة بأنه ليس مسؤولا عن تزكية قومه ، فيتعين ماذهب إليه القمي قدس سره من كون معنى الاية : لاتبالي أزكي كان الغني ام لم يكن ، واذا تعيّن هذا التفسير ـ وهو كذلك ـ فالقول بأن المقصود منه هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله جرأة وإنكار لماهو ضروري .

قال السيد المرتضى : وكيف يقول له ﴿ وماعليك ألا يزكىٰ ﴾ وهو صلى الله عليه واله مبعوث للدعاء والتنبيه ، وكيف لايكون

(١) البقرة : ١٩٢ .

(٢) بناءً على التفسير الاول للاية فراجع .

عليه ذلك [1].

إن قلت : أن مافعله ابن ام مكتوم كان نوعاً من أساءة الادب ، فيحسن تأديبه بالاعراض عنه والعبوس [2].

قلت : لو كان ذلك صحيحاً إذن فَلِمَ هذا العتاب من قبل الله عز جل على أمر يستحقه ابن أم مكتوم ، أضف الى ان العتاب متوجه بصورة مؤكدة على من يتصدى للاغنياء ويتلهى عن الفقراء ، فمنشأ الاعراض عن ابن ام مكتوم لكونه من فئة الفقراء والمحتاجين ، فلهذا تأكّد العتاب والتوبيخ وتغلّظ .

ومنه تعرف جواب مافي تفسير «من وحي القران» من قوله : أن «العبوس» لن يكن عبوس احتقار ، وإنما كان عبوس مضايقة بسبب قطع ابن أم مكتوم لكلامه مع صناديد قريش ، إذ لو كان كذلك يأتي نفس الجواب لِمَ هذا العتاب الشديد على عبوس منشأه المضايقة لا الأحتقار ، وما الربط بين العبوس المضايقي والتصدي للاغنياء والتلهي عن الفقراء والمؤمنين ؟!! .

وحدة الحال

وقوله : ان دراستنا لعلاقة النبي صلى الله عليه واله بهذا الاعمى تدل على أن هناك صلة وثيقة بينهما بحيث كان يدخل على النبي صلى الله عليه واله وهو جالس بين زوجاته ، وقد اشتهرت الرواية التي تتضمن دخوله عليه وعنده عائشة وأم سلمة ، فقال

---

(١) تنزيه الانبياء : ١٦٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي : ج ٣١/ ٥٥.

لهما : احتجبا فقالتا : إنه أعمى ، فقال : أنتما ؟ ... بالاضافة الى استخلافه عليها عند خروجه الى الغزو فانه يدل على عمق الصلة منذ البداية ... ان ذلك كله قد يوحي بوحدة الحال بينه وبين النبي صلى الله عليه واله بحيث يغيب عن العلاقة أي طابع رسمي ، مما يجعل أعراض النبي صلى الله عليه واله اعتماداً على مابينه وبينه من الصلة التي تسمح له بتأخير الحديث معه الى فرصة أخرى من دون أن يترك أي أثر سلبي في نفسه (١) لاسيما اذا كان ذلك لمصلحة الدين التي تهم أي مسلم في زمن الدعوة الاول ان يحصل النبي على إيمان أي شخص من كفار قريش الوجهاء في مجتمعهم باعتبار أن ذلك يخفف العذاب والحصار على المسلمين المستضعفين ومنهم ابن ام مكتوم ، وبذلك يكون اعرضا النبي صلى الله عليه واله عنه كاعراضه عن أحد أفراد أصحابه او عائلته اتكالا على مابينه وبينه (٢) .

ففيه : أولا أنا لانسلم بهذه الوحدة اذ شأن أبن ام مكتوم كشأن بقية الصحابة ، ولكونه أعمى لاتحرز من دخوله بيوت النبي صلى الله عليه واله ، وماذكره من روايات منقولة عن العامة وأهل الحشو إن سلّمنا بصحتها (٣) فقاصرة عن اثبات وحدة الحال ، واستخلافه على المدينة مرتين لايلازم ذلك .

---

(١) وقد تقدم أن عدم التأثر لايلازم عدم القبح فراجع مستهل البحث .

(٢) من وحي القران : ج ٦٦/٢٤ .

(٣) مع أنها خارجة عن موضوع الحجية .

أضف إلى أن وحدة الحال والتي بمعنى غياب الطابع الرسمي بين الرسول صلى الله عليه واله وبين إبن أم مكتوم ـان سلمنا بها ـ لايعني الخروج عن الاداب الشرعية والعبس في وجوه الاهل والاصدقاء، فرفع التكلف مع الاصدقاء لايعني التجرأ عليهم واستحقارهم وعدم الاهتمام بهم وقلة الادب معهم، فالمرفوع مع الاهل والاصدقاء هو التكلّف لا الادب، فما في القول المشهور «بين الاحباب تسقط الاداب» معناه تسقط الكُلفة والرسميات، وفي هذا قال ضرار واصفا لامير المؤمنين عليه السلام «كان فينا كأحدنا ...».

أضف أن الاخرين قد لمسوا منه نفوره من إبن أم مكتوم وهذا كاف في الحكم بالقبح، بتقريب أنه سوف يتبادر للحاضرين أن الذي يدعوهم إنما يدعوهم لكونهم أغنياء، وانه لو كان ابن ام مكتوم من الاغنياء لما عامله هذه المعاملة.

كلمات بعض الاعلام في نزول الاية

قال الفيض الكاشاني: وأما ما اشتهر من تنزيل هذه الايات في النبي صلى الله عليه واله دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير اللائقة بمنصبه وكذا ماظهر بعدها الى آخر السورة كما لايخفى على المتأمل بأساليب الكلام، ويشبه أن يكون مختلقات أهل النفاق والحشوية الذي من عادتهم الافتراء على الانبياء ونسبة السوء إليهم في بعض الامور، وذلك لغرض

مخصوص وهو أن مانسب الى بعض ولاة أمورهم وما صدر من القبائح عنهم وصح صدوره لايكون قادحاً في امارتهم، ولذا ينسبون بعض الامور الى أعاظم الانبياء خلطا للمبحث [١].

وقال السيد المرتضى : أما ظاهر الاية فغير دال على توجهها الى النبي صلى الله عليه واله، ولا فيها مايدل على أنها خطاب له، بل هي خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه، وفيها مايدل عند التأمل على أن المعني بها غير النبي صلى الله عليه واله لانه وصفه بالعبوس وليس هذا من صفات النبي صلى الله عليه واله في قرآن ولاخبر من الاعداء المبايين فضلا عن المؤمنين المسترشدين.

ثم وصفه بأنه يتصدى للاغنياء ويتلهى عن الفقراء وهذا مما لايصف به نبينا صلى الله عليه واله من يعرفه فليس هذا مشبهاً لاخلاقة الواسطة وتحننه على قومه وتعطفه ... وقيل: ان هذه السورة نزلت في رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه واله كان منه هذا الفعل المنعوت فيها، ونحن ان شككنا في عين من نزلت فيه فلا ينبغي أن نشك في أنها لم يعن بها النبي صلى الله عليه واله، وأي تنفير أبلغ من العبوس في وجوه المؤمنين والتهلي عنهم والاقبال على الاغنياء الكافرين والتصدي لهم، وقد نزه الله النبي صلى الله عليه واله عما دون هذا في التنفير بكثير [٢].

---

(١) مقتنيات الدرر ج١٢/٦٧.

(٢) تنزيه الانبياء : ١١٩.

وقال شيخ الطائفة الطوسي : وهذا فاسد [١] ، لان النبي صلى الله عليه واله قد أجل الله قدره عن هذه الصفات ، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب ، وقد وصفه بأنه ﴿ لعلى خلق عظيم ﴾ [٢] وقال ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [٣] وكيف يعرض عمن تقدم وصفه مع قوله تعالى ﴿ ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ ومن عرف النبي صلى الله عليه واله وحسن أخلاقه وما خصه الله تعالى به من مكارم الاخلاق وحسن الصحبة حتى قيل إنه لم يكن يصافح أحداً قط فينزع يده من يده ، حتى يكون ذلك الذي ينزع يده من يده ، فمن هذه صفته كيف يقطب في وجه أعمى جاء يطلب الاسلام ، على أن الانبياء عليهم السلام منزهون عن مثل هذه الاخلاق وعما هو دونها لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والاصغاء إلى دعائهم ، ولا يجوَّز مثل هذا على الانبياء من عرف مقدارهم وتبين نعتهم [٤] .

وقال العلامة الطباطبائي : وليس الايات ظاهرة الدلالة على أن المراد بها هو النبي صلى الله عليه واله ... وقد عظّم الله خلقه صلى الله عليه واله اذ قال ـ وهو قبل نزول هذه السورة ـ ﴿ وإنك لعلى

---

(١) أي القول بكونها نازلة في الرسول صلى الله عليه واله .

(٢) القلم : ٤ .

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

(٤) تفسير التبيان : ج ٢٦٨/١٠ .

خلق عظيم ﴾ والاية واقعة في سورة «ن» التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة أقرأ باسم ربك، فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه في أول البعثة ويطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية ويذمه بمثل التصدي للاغنياء وإن كفورا والتلهي عن الفقراء وإن آمنوا واسترشدوا.

وقال تعالى أيضاً ﴿ وأنذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين ﴾ فأمر بخفض الجناح للمؤمنين والسورة من السور المكية والاية في سياق قوله ﴿ وأنذر عشيرتك الاقربين ﴾ النازلة في أوئل الدعوة.

وكذا قوله ﴿ لاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجاً منهم ولاتحزن عليهم وأخفض جناحك للمؤمنين ﴾ وفي سياق الاية قوله ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ النازل في أول الدعوة العلنية فكيف يتصور منه صلى الله عليه واله العبوس والاعراض عن المؤمنين وقد أمر بأحترام إيمانهم وخفض الجناح وأن لا يمد عينه الى دنيا أهل الدنيا.

على أن قبح ترجيح غنى الغني - وليس ملاكاً لشيء من الفضل - على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والاعراض عن الفقير والإقبال على الغني لغناه قبح عقلي مناف لكريم الخلق الانساني لايحتاج في لزوم التجنب عنه الى نهي لفظي.

وبهذا وماتقدمه يظهر الجداب عما قيل: إن الله سبحانه لم ينهه صلى الله عليه واله عن هذا الفعل إلا في هذا الوقت فلا يكون معصية منه إلا بعده وأما قبل النهي فلا.

وذلك أن دعوى أنه تعالى لم ينهه إلا في هذا الوقت تحكم [1] ممنوع، لو سلّم فالعقل حاكم بقبحه ومعه ينافي صدوره كريم الخلق وقد عظّم الله خلقه صلى الله عليه واله قبل ذلك إذ قال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وأطلق القول والخلق ملكة لاتتخلف عن الفعل المناسب لها [2].

وقال الشيخ مكارم الشيرازي: ان المشهور بين المفسرين في شأن النزول هو نزولها في شخص النبي صلى الله عليه واله، ولكن ليس في الاية مايدل بصراحة على هذا المعنى [3].

المقام الثاني: البحث الروائي

وفي هذا المقام لاتوجد إلا روايتان مرسلتان [4]:

الاولى: صرحت أن العابس هو عثمان بن عفان.

والثانية: ربّما يستفاد منها أن العابس هو الرسول الاكرم صلى

---

(١) أي بلا دليل وحجة.

(٢) تفسير الميزان: ٢٢٣/٢٠.

(٣) التفسير الامثل: ج٣٦٤/١٩، وقصده مفسرين العامة دون الخاصة.

(٤) ومعنى الارسال: عدم اتصال سند الرواية الى المعصوم.

الله عليه واله ذكرهما الطبرسي في مجمع البيان.

قال: روي عن الصادق عليه السلام أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي صلى الله عليه واله فجاء ابن ام مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

وقال: وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه واله إذا رأى عبدالله بن أم مكتوم، قال: مرحباً، والله لايعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي صلى الله عليه واله ممايفعل به [١].

وبما أن الروايتين مرسلتان فلا يمكن الاعتماد عليهما وترجيح أحدهما على الاخرى، اذ الترجيح فرع الحجية، ولاحجية لهما للارسال، والفاصلة بين الطبرسي والامام الصادق عليه السلام كبيرة جداً، فلو كان المرسل هو الكليني في الكافي، أو الصدوق في كل كتبه وبالخصوص في كتابه «من لايحضره الفقيه» أو علي بن ابراهيم في كتابه التفسير [٢] لامكن اعتبار هذا

(١) مجمع البيان: ٦٦٤/١٠.

(٢) فقد ذهب سيد الفقهاء والمجتهدين الخوئي قدس سره ـ مع ماهو معروف عنه من التشدد والصرامة في التوثيق ـ الى وثاقة كل من وقع في تفسير علي بن ابراهيم، فما عن بعض المعاصرين «كليات في علم الرجال» من عدم اعتبار تفسير علي بن ابراهيم لعدم السند الصحيح إليه وكون مقدمة الكتاب ـ الموثقة لرجاله اجمالا ـ ليس لعلي بن ابراهيم وإنما لتلميذه العباس، وسوسة زائدة، وهروباً من وصم الخاصة برواية

الارسال .

أضف الى أن الطبرسي رحمه الله لم يلتزم في تفسيره بنقل أحاديث الخاصة فقط ، إذ قد أكثر وأسرف في نقل روايات العامة إلا في موارد قليلة ، بل من يتصفح تفسيره إن لم يكن له علم بعقيدته لايشك في أنه من أبناء العامة المعتدلين المحبين لاهل بيت النبوة وموضع الرسالة ، فلعل هاتين المرسلتين من روايات العامة وأحاديثهم سيما الرواية الثانية التي استفيد منها أن العابس هو الرسول صلى الله عليه واله ، وايعازهما للامام الصادق عليه السلام لايصحح أنها من روايات الخاصة ، إذ العامة تروي عنه كثيراً ولم يمتنع عن الرواية عنه إلا البخاري في صحيحة الحاوي على عدة من الروايات الصريحة والناصة على تحريف القران الكريم (١).

أحاديث تحريف القران ، مع أن صحيح البخاري ومسلم فيهما أحاديث تفوق مما في هذا التفسير المبارك مع صراحتها ، بخلاف ما فى هذا التفسير فإنها ظاهرة في التحريف فتحمل على بعض المحامل التي تتلاءم مع قوله تعالى ﴿إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

(١) كآية الرجم وهي «إذا زنيا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» وكان عمر يصرّ عليها ويقول : لولا أن يقول الناس إن عمر زاد في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي ، صحيح البخاري : ج ١٥٢/٤ ، ودعوى أن هذا ليس من القول بتحريف القران بل هو من نسخ التلاوة ضعيف للغاية اذ أن عمر يصر على ان هذا مما سقط من القران ولو كان الامر بيده لكتب هذه الاية في المصاحف ، وكثير من الروايات أيضا في صحيح مسلم ومسند الامام احمد وباقي الصحاح والسنن

وإذا غضضنا الطرف عن السند والارسال فإن الصناعة الدرائية والروائية والاصولية تقتضي ترجيح الرواية الاولى لاعتضادها بما في تفسير علي بن إبراهيم وقد تقدم تفسيره للاية، والاشكال بأنه لم يصرح بكون ذلك رواية، في غاية الضعف، إذ ليس المقام في تفسير الاية حتى يقال لعله اجتهاد منه بل في سبب النزول وفيمن نزلت الذي لاسبيل لمعرفته إلا بالرواية (١).

ومع عدم التسليم بذلك هناك مرجحات أخرى للرواية الاولى وهي:

الاول: أن الرواية الثانية مخالفة للقران الكريم الواصفة للرسول الاكرم صلى الله عليه واله بأنه ذو خلق عظيم وأنه رؤوف

والمسانيد والمعاجم صريح في سقوط آيات بل سور قرآنية وليس هو من نسخ التلاوة الموهوم.

فعن ابي موسى الاشعري أنه جمع قراء البصرة فكانوا ثلاث مئة رجل وقال لهم في كلام له: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» وكنا نقرأ سورة نشبهها باحدى المسبحات، فانسيتها، غير اني حفظت منها «ياايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون يوم القيامة، راجع صحيح مسلم ج٣/١٠٠، صحيح الترمذي ج٥/٦٦٦، والمستدرك ج٢/٢٢٤، ومسند احمد ج٥/١٣١، ١٣٢ وغيرهم كثير، «الرضوي».

(١) مؤيداً بما ذكره الشيخ الطوسي في التبيان ٢٦٩/١٠ من كون الايات نزلت في رجل من بني أمية.

بالمؤمنين عطوف عليهم، وقد أمر الائمة عليهم السلام أصحابهم بعرض الاحاديث على كتاب الله فان وافقت كتاب الله فهي، وإلا ضربت عرض الحائط.

ففي صحيحة ابن ابي يعفور عن ابي عبدالله عليه السلام قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله عز وجل أو من قول رسول الله صلى الله عليه واله، وإلا فالذي جاءكم به أولى به [1].

وفي صحيحة هشام بن الحكم عن ابي عبدالله عليه السلام قال: خطب النبي صلى الله عليه واله بمنى، فقال: أيها الناس ماجاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وماجاءكم بخلاف كتاب الله فلم أقله [2].

العبس وترك الاولى [3]

فإن قيل: أن العبس من ترك الاولى فلا ينافي العصمة [4] وخلقه العظيم وكونه بالمؤمنين رؤوف رحيم.

ففيه:

١ / أن العبس لو سلمنا أنه من ترك الاولى فهو مقبول في حق

---

(١) الكافي: ٥٥/١.

(٢) الكافي: ٥٦/١، والاحاديث في ذلك متعددة.

(٣) ترك الاولى من أمثلته ترك الاهم والاشتغال بالمهم.

(٤) ذكر ذلك جمع من المفسرين العامة، ومن الخاصة على فرض كون الايات نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله.

بقية الانبياء دون النبي الخاتم صلى الله عليه واله [1].

٢ /كما يمكن القول بأن ترك الاولى ان كان متصوراً في بقيّة الانبياء والمرسلين لكن ذلك فيما كان قبل النبوة والاجتباء لا ماكان بعد الاجتباء ، فتناول آدم عليه السلام من الشجرة كان من ترك الاولى وكان ذلك قبل اجتبائه ثم بعد ذلك اجتباه الله تعالى بقوله ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه فتاب عليه وهدى ﴾ [2] وعليه فلا يتصور ترك الاولى بعد الاجتباء فتدبر .

٣ /أن ترك الاولى وإن كان لا ينافي العصمة النسبيّة ، فيمكن أن تجتمع العصمة بدرجة معينة مع ترك الاولى ، لكن هذا فيما كان العمل المتعنون بكونه تركاً للاولى مرتبطاً بالله وبالرسول ، دون ما إذا كان مرتبطاً بالرسول وبقية البشر ، وبتعبير آخر العبس تركٌ للاولى بالنسبة للمحرمات المرتبطة بالاحكام الشرعية المدونة في رسائل الفقهاء ، أما بالنسبة للاخلاق فهو منافٍ لها لا أنه من ترك الاولى ، هذا حسب مايقتضيه الخلق العادي فكيف بمن وصف بأن خلقه عالٍ وعظيم بلسان الوحي ، فممّا لا يمكن ان يتصور في حقه العبس والتقطيب في وجوه المستضعفين أصحاب القلوب الرقيقة والحساسة .

---

(١) ومما ينبغي أن يلاحظ ان الفعل المتعنون تحت عنوان «ترك الاولى» أنما هو كذلك بالنسبة لنا لا بالنسبة للرسول فتدبر .

(٢) طه : ١٢١ .

فصحيح أن العبس لاينافي العصمة من الذنوب والمحرمات لكنه ينافي الاخلاق العادية فضلا عن الاخلاق العالية العظيمة، فلا يمكن القول به في حق الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، إذ مع تحققه يكون غير معصوم بهذا المستوى، وقد قامت الادلة على أن النبي الامي صلى الله عليه وآله مؤيد بروح القدس لايسهو ولايلهو، فمن باب الاولوية القطعية أنه لايتصف بصفة العبس في وجوه المؤمنين، فنفي السهو عنه معناه نفي كل ماهو بمستواه أو أشدّ منه، ومن الواضح ان التعبيس والتقطيب ليس بمستوى السهو قبحاً، وعليه فنفي الاقل قبحاً عنه صلى الله عليه واله يستلزم نفي الاشد كما لايخفى.

أضف إلى أن العابس ـ كما قلنا مرارا ـ لم يكتف بعملية العبس بل تولى وأعرض مع ماهو من عادته وطبيعته من التصدي للاغنياء والتلهي عن الفقراء والمستضعفين.

الثاني: أن الرواية الثانية موافقة للعامة ورواياتهم، وقد استفاضت الاخبار عن طريق أهل البيت عليهم السلام أنه اذا اختلفت الاخبار عنهم يؤخذ بما خالف العامة ويترك ماوافقهم.

ففي صحيحة الحسن بن جهم قال: قلت للعبد الصالح عليه السلام: هل يسعنا فيما ورد علينا منكم إلا التسليم لكم؟ فقال: لا والله لايسعكم إلا التسليم لنا، فقلت: فيروى عن أبي عبدالله عليه السلام شيء، ويروى عنه خلافه، فبأيهما نأخذ؟ فقال: خذ بما

خالف القوم، وماوافق القوم فاجتنبه [١].

قلت: قال الرضا عليه السلام «شيعتنا المسلّمون لامرنا، الآخذون بقولنا، المخالفون لأعدائنا، فمن لم يكن كذلك فليس منا» وقال الصادق عليه السلام «كذب من زعم أنه من شيعتنا، وهو متمسك بعروة غيرنا».

الثالث: أن الايات في مقام عتاب وتأنبيب وتوبيخ للعابس المتولي وقد ورد عن ابن ابي عمير عمن حدثه عن ابي عبدالله عليه السلام قال: ما عاتب الله نبيه فهو يعني به من قد مضى في القران مثل قوله ﴿لولا ان ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا﴾ [٢] عنى بذلك غيره [٣].

وعن علي بن محمد بن الجهم عن ابي الحسن عليه السلام مما سأله المأمون: فقال: أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم﴾.

قال الرضا عليه السلام: هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي ياجارة؛ خاطب الله عز وجل بذلك نبيه صلى الله عليه واله وأراد به أمته، وكذلك قوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك

---

(١) الوسائل: ابواب صفات القاضي باب ٩ حديث ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٢٤، ٤٦، ١، وغيرها.

(٢) الاسراء: ٧٤.

(٣) تفسير العياشي: ، ورواه الكليني مرسلا وقد تقدم ذكره في مستهل البحث، هذا وقد أجمعت الطائفة ـ كما في عدة الشيخ الطوسي ـ على العمل بمرسلات ابن ابي عمير في الاحكام الشرعية فكيف بغيرها.

ولتكونن من الخاسرين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ﴾ قال : صدقت يابن رسول الله [1] .

فيكون العابس ليس هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله إذ لأحد يشك بان الاية فيها عتاب وتوبيخ ، فإذا كان قوله ﴿ عفا الله عنك ﴾ وفيه عتاب خفيف ليس هو المقصود منه فما هو أشد منه في التأنيب والتوبيخ من باب الاولوية القطعية ليس هو المقصود منه ، من قبيل قوله تعالى ﴿ ولاتقل لهما افٍ ﴾ فإذا كان «الاف» منهي عنه فما هو أشد منه كذلك للاولوية القطعية .

الرابع : وهو ضابطة كلية شاملة لكل آيات الذكر الحكيم وهي قول الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم « يامحمد إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الامة بخير ، فهم نحن ، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى ، فهم عدونا » [2] وقول أمير المؤمنين عليه السلام « سموهم بأحسن أمثال القرآن ـ يعني عترة النبي صلى الله عليه واله ـ هذا عذب فرات فاشربوا ، وهذا ملح أجاج فاجتنبوا » [3] .

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج ٤٠٨/١ ، باب ٣٧ حديث ١ .

(٢) تفسير العياشي : ١٣/١ ، بسنده عن محمد بن مسلم ، وللعياشي الى ابن مسلم أكثر من ستة طرق ، فلا يتوهم عدم تصحيح السند للارسال وحذف مستنسخ الكتاب أسانيده .

(٣) تفسير العياشي : ١٣/١ عن مسعدة بن صدقة عن الصادق عن أبيه عن جده عليهم السلام ، ونقله في البحار : ج ٩٩/٢ عن الارشاد للشيخ المفيد في خطبة طويلة للامير

ومن الواضح ان التعبيس والتولي والتصدي للاغنياء لغناهم والتلهي عن الفقراء قول سوء.

فهم كما في الروايات المستفيضة «المثل الاعلى لله» وقد وصف الله سبحانه وتعالى الوليد بن المغيرة بأنه عبس وبسر، فالقول بأن العابس والمتولي هو الرسول جرأة عليه صلى الله عليه واله وجعله في مصاف أعداء الله عز وجل، بل يكون حال العتل الزنيم الوليد بن المغيرة أهون من الرسول الاكرم صلى الله عليه واله لانه عبس في وجوه الاعداء والمناوئين.

ولا أحد يشك بأن الرسول الاكرم صلى الله عليه واله هو الانسان الكامل، فلو كان هو العابس والمتولي لما كان هو المصداق الاتم للانسان الكمال وللخلق الانساني.

عتاب الرسول على أخطاء أمته

هذا كله : على فرض استفادة أن العابس هو رسول الله صلى الله عليه واله من الرواية الثانية، واستفادة ذلك محل إشكال، اذ القول المنسوب له عليه السلام على لسان الرسول الاكرم صلى الله عليه واله « والله لايعاتبني الله فيك أبداً » لايستلزم كون العابس هو بأبي وأمي واهلي ومالي واسرتي، إذ عتاب الزعيم على أفعال رعيته مما لايخفى على أحد، حتى بالنسبة للقادة الصغار ورؤساء القبائل والقرى، فكيف بمن بعثه الله لهداية وتربية

عليه السلام وعن نهج البلاغة للشريف الرضي، وفي ٢٨٤/٢ عن الاحتجاج فراجع.

البشر ، ففي قوله تعالى ﴿ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر﴾ نسب الذنب الى الرسول الاكرم مع أنه في عدة من الروايات الذنوب المغفورة هي ذنوب شيعته وأصحابه المخلصين .

ففي صحيحة عمر بن يزيد قال : قلت لابي عبدالله عليه السلام : قول الله في كتابه ﴿ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر﴾ قال : ماكان له ذنب ، ولاهمّ بذنب [١] ، ولكن الله حمّله ذنوب شيعته ثم غفرها له [٢] .

فالعتاب هنا من هذا النمط ، فترجيح الرواية الثانية على الاولى بعد كل هذه الامور ، تقليد للعامة وتأثّر بهم وتقديم رواياتهم على روايات الخاصة ، وهو عكس ماأوصى به أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام ، أضف الى انه تنقيص لحق سر العالمين صلى الله عليه واله الذي لاينبغي ترك الاولى في حقه ولايجوز ، فكيف ينسب إليه العبس والتقطيب والتصدي لاعداء الله والتلهي

---

(١) روى الصدوق في الامالي : ١٥٩ مجلس ٢١ حديث ٨ ، وكمال الدين : ٥٢٤ ، بسند صيحح جدا جداً عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام قال : إن داود خرج ذات يوم يقرأ الزبور ... فإذا على الجبل نبي عابد يقال له حزقيل ... فقال داود : ياحزقيل ، هل هممت بخطيئة ، فقال حزقيل : لا ؛ فإذا كان حزقيل لم يهم بخطيئة وهي أعم من المعصية فكيف بمن هو أطهر خلق الله قاطبة .

(٢) تفسير القمي : ٣١٤/٢ ، ومثلها رواية المروزي رواها الصدوق ورواية المفضل بن عمر رواها الطبرسي في تفسيره وغيرها .

والتشاغل عن احبائه .

لا ، ولن ، ولم

هذا مضافاً إلى أن قوله «لايعاتبني الله فيك أبدا» في مقام النفي ، والنفي بـ«لا» كما حقق في النحو يقتضي نفي ذلك قبلاً وبعداً ، ويفيد عدم امكان ذلك في حق الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله ، المؤكد بقوله «أبداً» .

فالنفي بـ«لم» كقولنا : لم أذهب الى البيت ، يقتضي نفي ذلك في السابق .

والنفي بـ«لن» يقتضي نفي ذلك في الزمان اللاحق وهناك خلافٌ في نفيه للسابق .

أما «لا» فهي للنفي مطلقاً ، فقولنا : لا يأكل زيد السمك ، عدم أكله ذلك أعم من الماضي والحاضر (١) .

ونفي العتاب عنه ليس فيه قدحاً لاحد ، وتكرار هذه المقولة عند رؤية ابن ام مكتوم حتى لايقال بأن الذي عبس هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله ، والتعريض بهذه المقولة للعابس الحقيقي ليس فيه بأس ، اذ آيات الذكر الحكيم وخطابات الرسول الاكرم صلى الله عليه واله في التعريض بالمنافقين والكافرين

(١) فهو كقول الصادق عليه السلام في حقّ عمر بن حنظلة «إذا لايكذب علينا» فدخول «لا» على الفعل المضارع يفيد نفي الكذب مطلقاً عن عمر بن حنظلة ، لا أنه لم يكذب علينا في هذه المقولة .

والعصاة فوق حد الاحصاء.

العابس والدور الرسالي

وما في: تفسير «من وحي القرآن» من تعيّن كون العابس هو الرسول الأكرم صلى الله عليه واله وترجح الرواية الثانية على الاولى بدعوى أن الحديث عن رجل من بني أمية لاتتناسب مع أجواء الايات لان الظاهر من مضمونها أن صاحب القضية يمتلك دوراً رسالياً ويتحمل مسؤولية تزكية الناس، حتى يفرض توجيه الخطاب إليه للحديث معه عن الفئة التي تحمل مسؤولية تزكيتها (١).

غير صحيح لأمور:

الاول: كون العابس له دوراً رسالياً لايلزم منه وليس بالضرورة ان يكون هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، إذ كل المسلمين آنذاك مطالبون بنشر الرسالة وبث الهداية في المجتمع المكي وغيره.

الثاني: استفادة أن العابس له دور رسالي أول الكلام، إذ ليس بالضرورة أن يكون العابس له ذلك، إذ الموقف كان بحضرة الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، وكان هم هذا العابس إسلام أصحاب رؤوس الاموال والمترفين من صناديد قريش لما يترتب على إسلامهم من قوة وعزة للاسلام، فحينما يأتي الغني يتصدى

---

(١) تفسير من وحي القران: ج ٧٥/٢٤.

له هذا العابس وحينما يأتي الفقير والمستضعف يتلهى عنه ولا يرغب في إسلامه حتى لا يقال بأن الداخلين في الاسلام ماهم إلا أراذل مكة وباديء الرأي والفقراء والعبيد.

فنزلت هذه السورة بعد ذلك الموقف مع الاعمى ترشد وتأمر المسلمين الى المساواة في الدعوة، وأن لا يفرقوا بين الغني والفقير والصغير والكبير والعبد والسيد والرجل والمرأة، وأن لاتكون في نفوسهم حزازة من إسلام الفقراء والمساكين، فعزة الدين ليس بإسلام الاغنياء والمترفين [١]، وإنما عزته بالتقوى والخشوع لله تعالى من أي شخص كان فقيراً او غنياً فليس للغنى والفقر أي قيمة في عزة الاسلام وقوته، بل لله العزة ولرسوله وللمؤمنين حتى وإن كان من الفقراء والعبيد، إذ قد كان لهم دور كبير جداً في تقدم الاسلام وازدهاره كما ينبأ بذلك التاريخ.

---

(١) ان قلت: بأن الاسلام كما في القول المأثور قام على ثلاث: أخلاق محمد صلى الله عليه واله ومال خديجة عليهما السلام وسيف علي عليه السلام، فالمال له دور في تقدم الاسلام وعزته، وعليه يكون للغني قيمة واهتمام زائد على الفقير.

قلت: هذا في فرض انفاق هذا الغني المسلم أمواله في خدمة الاسلام وتوظيفها في نشر الرسالة، وواقع الحال من أكثر الصحابة الاغنياء خلاف ذلك، والشاهد عليه حينما نزلت أية المناجات (اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) لم يتقدم أحد من الصحابة الاغنياء وكذا الفقراء الا علي عليه السلام فهو الذي فاز بتطبيق هذه الاية ولاغرو في ذلك فانه يقاتل على تأويل وتطبيق القران كما قاتل الرسول صلى الله عليه واله على تنزيله كما في الحديث الصحيح المروي عن طريق الخاصة والعامة.

هذا إن أحسنا الظن بالعابس وحملنا عمله على الصحة وفسرنا قوله تعالى ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي ليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالاسلام بعد أن بلغت ماعليك ، أما إذا كان معنى الاية أي لاتبالي زكياً كان الغني أو غير زكي كما ذكر ذلك علي بن ابراهيم في تفسيره والسيد المرتضىٰ [1] وغيرهما ـ وهو ظاهر بل صريح الاية كما تقدم ـ فهذا التوجيه لاوجه له أصلا .

الثالث : أن منشأ ذهابه الى كون العابس له دور رسالي قوله تعالى ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ﴾ فلو لم يكن له دور رسالي لم يأت له من يخشى طلباً للهداية والتزكية ، ونحن قد أجبنا على مثل هذا وقولنا بأن هذا الخطاب من قبيل «إياك أعني واسمعي ياجارة» ومن يسافر مع آيات الذكر الحكيم يجد أماكن كثيرة الخطاب موجه الى الرسول الاكرم صلى الله عليه واله والمقصود غيره ، ومن لايلتفت الى هذه القاعدة يتصور بأن المقصود هو شخص النبي صلى الله عليه واله .

وسبب هذا النمط من الخطاب على مانستوحيه من تفسير «من وحي القران» ولنعم مااستظهره وَلَيْتَه جزم به في المقام : ليكون الخطاب للامة من خلال النبي صلى الله عليه واله ليكون

---

(١) تنزيه الانبياء : ١٦٣ ، حيث قال « وكيف يقول له (وماعليك ألا يزكىٰ) وهو صلى الله عليه واله مبعوث للدعاء والتنبيه ، وكيف لايكون عليه ذلك » قلت وهو الذي يقتضيه السياق وظاهر الاية فتدبر جيداً ، وإنما أُستظهر التفسير الاخر لوهم أنها نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله .

ذلك أكثر فاعلية وتأثيراً ايجابياً في انفسهم، لان النبي صلى الله عليه واله إذا كان يخاطب بهذه الطريقة في احتمالات الانحراف والموارد المستبعدة فكيف بغيره.

ثم أضاف: أن القسوة الملحوظة في الايات في الحديث مع النبي صلى الله عليه واله تمثل ظاهرة واضحة في أكثر الايات التي تتصل بسلامة الدعوة واستقامة خطها، حتى يفهم الدعاة من بعد النبي صلى الله عليه واله بأن عليهم أن يقفوا في خط الاستقامة حتى بالمستوى الذي لا يمثل تصرفهم فيه عملاً غير أخلاقي، لان الغفلة عن الخطوط الدقيقة في المسألة قد تجرُّ الى الانحراف بطريقة لاشعورية (١).

كما أنه هناك سبباً آخراً وهو الذي يقتضيه الخلق القراني ومراعات المشاعر والاحاسيس وعدم فسح المجال للناس للانحراف والضلال، فلو كانت الايات تخاطب من نزلت فيه بشكل مباشر وتحدده من بين المسلمين بصفاته وأفعاله الخارجية لتأذى من ذلك وأصبح عار عليه وعلى من يأتي بعده من أهله، ولربما ازداد في غيّه وجهله وقد يرتد عن دينه ويحارب الاسلام والمسلمين، من هنا اقتضت الحكمة الالهية توجيه كل ذلك الى الرسول الاكرم صلى الله عليه واله.

وهذا أسلوب متخذ لدى كل المربّين، من عدم خطاب

---

(١) تفسير من وحي القران: ج٢٤/٦٦.

العاصي والمذنب بشكل مباشر حتى لايتأذي ويصر على ذنبه ومعصية ، بل خطابه عن طريق مخاطبة جميع الناس أو أعز الاصدقاء إليه أو ولي أمره وكأنه هو الذي فعل ذلك الذنب وتلك المعصية .

ويمكن أن يستظهر هذا من قول الامام الهادي عليه السلام جواباً على أسئلة يحيى بن أكثم : أما قوله ﴿ فان كنت في شك ﴾ فإن المخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه واله ولم يكن في شك مما انزل الله عز وجل [١] ، ولكن قالت الجهلة : كيف لايبعث إلينا نبيا من الملائكة ، إنه لم يفرق بينه وبين غيره في الاستغناء عن المأكل والمشرب والمشي في الاسواق فأوحى الله عزوجل الى نبيه ﴿ فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك ﴾ بمحضر من الجهلة هل يبعث الله رسولا قبلك الا وهو يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ولك بهم أسوة وإنما قال : وإن كنت في شك ولم يقل ولكن ليتبعهم كما قال له صلى الله عليه واله فقل ﴿ تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ... فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ ولو قال : تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله علكيم لم يكونوا يجيبون للمباهلة ، وقد عرف أن نبيه صلى الله عليه واله مؤدى عنه رسالته وماهو من الكاذبين ، وكذلك عرف النبي صلى الله عليه واله أنه صادق فيما

---

(١) وهذا موضع الشاهد ، فهو صلى الله عليه واله المخاطب ولكنه ليس المقصود من الخطاب ، لكونه من الشك ، وهل يمكن أن يبعث الله رسولا شاكاً في رسالته ؟!!

يقول ولكن أحب أن ينصف من نفسه [١].

وهناك امر رابع سيأتي ذكره في مابعد، مستند الى القراءة التي نسبت الى الامام الباقر عليه السلام من قراءته قوله تعالى «تُصدى، تُلهى» بضم التاء على هيئة الفعل المبني للمجهول.

وليُعلم: أنّا في مقام نفي كون العابس والمتولى هو الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، أما كونه عثماناً او رجلا آخر من بني أمية، او ان الاعمى هو ابن ام مكتوم أو غيره فلا يهمّنا ذلك بعد نفي كون الايات نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، فليكن العابس عثمان او غيره لا يهم.

مثائل الايات

فهذه الايات على غرار قوله تعالى ﴿ ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ [٢] وقوله ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ [٣].

إذ ذكر في اسباب النزول أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة

---

(١) علل الشرائع: ١٥٦ باب ١٠٧ حديث ١.

(٢) الانعام: ٥٢. (٣) الكهف: ٢٨.

ومطعم بن عدي والحرث بن نوفل وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل جاؤوا في أشراف من بني عبد مناف من الكفار الى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لإتباعنا إياه وتصديقنا له، فجاء أبو طالب النبي صلى الله عليه واله فحدثه بذلك فقال عمر بن الخطاب لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون والى مايصيرون من قولهم، فأنزل الله عز وجل ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه من ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ولاتطرد الذين ... أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾، فلما نزلت الاية أقبل عمر بن الخطاب فأتى النبي صلى الله عليه واله فاعتذر في مقالته [1].

فليس الذي هَمَّ بطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي هو الرسول صلى الله عليه واله مع أن الخطاب موجه إليه، وإلا لكان من الظالمين، ولكون ذلك ظلم جاء عمر بن الخطاب واعتذر عمّا بدر منه من ظلم لهذه الفئة المستضعفة [2]، وللاسف الشديد ذهب جماعة من المفسرين ومنهم بعض الخاصة ـ احتمالا ـ كون الذي هم بالطرد هو النبي الاكرم صلى الله عليه واله.

فالرسول الاكرم صلى الله عليه واله أول مابدأ بالدعوة غالب

---

(١) تفسير الطبري: ج٧/٢٠٢، تفسير ابن كثير: ج٢/١٣٦.

(٢) وكان على رأسهم ابن مسعود والمقداد وعمار وبلال.

من أتبعه كان من المستضعفين من الناس والفقراء والعبيد والاماء ولم يتبعه من الاشراف إلا القليل القليل، وهكذا هو شأن كل الانبياء على مر التاريخ المشار إليه في الذكر الحكيم ﴿ ومانراك اتبعك إلا الذين هو أراذلنا باديء الرأي ﴾ فالمحيط الذي كان يعيشه الرسول الاكرم صلى الله عليه واله هو محيط الفقراء والمستضعفين والمعدمين فهو أبو اليتامى والمساكين.

ومن الطبيعي أن صناديد قريش والمترفين من أهل مكة المعروفين بالتكبّر والخيلاء لايمكنهم ولايعجبهم الجلوس مع الفقراء والمساكين ومع العبيد والمستضعفين، وكان هناك بعض من الصحابة المجالسين للرسول الاكرم صلى الله عليه واله والمحيطين به يهمهم إسلام وإيمان المترفين من أهل مكة والاشراف من قريش ممّا أدى الى عدم إهتمامهم بالفقراء والمستضعفين الطالبين للاسلام والساعين نحو الخشوع والايمان.

فإذا أقبل الى الرسول صلى الله عليه واله أحد المترفين والاشراف هيّؤوا الاجواء المناسبة له ووسعوا له المجالس وأقبلوا عليه بكل مايمتلكون من صفات حسنة وكلمات طيبة وجعلوا الرسول الاكرم صلى الله عليه واله يتصدى له، أما اذا جاء أحد من المستضعفين والفقراء لهووا الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وأشغلوه عن التصدى والتعرض له، والى هذه الحالة تشير قراءة

الامام الباقر مكعليه السلام لقوله «تُصدى ... تُلهى» بضم التاء على صيغة الفعل المبني للمجهول (١).

وهذا السلوك هو السائد في كل المجتمعات وأصحاب الدعوات إلا من عصم الله، من تقديمهم للغني والتعرض والاقبال عليه وتأخيرهم للفقير والمستضعف والتلهي والتشاغل عنه، فحينما عبس رجل من الصحابة في وجه ابن أبي أم مكتوم وكان من تلك الفئة الذين يهمهم التعرض للاشراف والاغنياء نزلت هذه الاية بالمناسبة مشيرة الى ذلك المرض الذي يصاب به أصحاب الدعوات من توهمهم أن الاغنياء والاشراف لهم حق الاولوية في الدعوة إذ بإسلامهم اسلام جمع عظيم ممن يتبعهم ويدين بولايتهم.

وقد غاب عن ذهنهم أن الله لايريد اسلاماً وايماناً منشأه العصبية القبلية والطمع الدنيوي، بل يريد إسلام الطمأنية والاعتقاد القلبي الصادق المتكىء على الايمان بأحقانية هذه الرسالة الخالدة، ولذا كانت دعوة الرسول الى الكل بمستوى واحد، إن لم نقل بأنه هناك بعض الاهتمام والتأكيد لطبقة الضعفاء والمستضعفين، على خلاف كل الدعوات التي أول ماتبدأ تبدأ

---

(١) وبناءاً على هذه القراءة لايمكن أن يحتمل أن العابس له دور رسالي فضلاعن أن يجزم به، إذ الخاشع الساعي يأتي الى الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وهذا العابس يلهي الرسول الاكرم صلى الله عليه واله عن التصدي له.

بأصحاب رؤوس الاموال والوجهاء و الاشراف من الاقوام.

قاعدة الاهم والمهم

فما في: كثيرٍ من الكلمات من تبرير عَبْس الرسول صلى الله عليه واله وتلهيه وانشغاله عن ابن ام مكتوم [(١)] لقاعدة أن الاهم مقدم على المهم، بتقريب أن إسلام صناديد قريش والاغنياء منهم اسلام لجمع عظيم فاعتراض ابن ام مكتوم بين الرسول صلى الله عليه واله وأشراف قريش قطع للخير الكثير لغرض قليل وخير ضئيل [(٢)].

خاطىء: إذ ذلك لايقل قبحاً من عملية التعبيس والتلهي عن المؤمنين والخاشعين، لما ذكرناه آنفاً من رفض الله تعالى ورسوله صلى الله عليه واله اسلامَ الطمع والعصبية القبلية، إذا اسلام كهذا لايسمن ولايغني من جوع، وضره على الرسول صلى الله عليه واله وعلى المؤمنين أكثر من نفعه، وهو الذي أوجد أكبر مشكلة واجهها الرسول صلى الله عليه واله وهي مشكلة النفاق، إذ ليس المنافقون إلا مِن فئة مَنْ كان اسلامه للطمع والعصبية، وفئة قليلة أظهرت الاسلام خوفاً، فعمدة المنافقين من كان اسلامه للطمع والعصبية.

ولو أن الرسول الاكرم صلى الله عليه واله يرغب في إسلام

---

(١) بعد ذهابهم الى أن العابس هو الرسول صلى الله عليه واله.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ج ٥٤/٣١.

أصحاب الاموال أكثر من رغبته في إسلام الفقراء والمستضعفين لكانت سيرته تختلف عمّا كانت عليه، وذلك لان الله تعالى ورسوله صلى الله وآله وأوليائه عليهم السلام لانظر لهم الى تلك الامتيازات الاعتبارية التي يتفاخر بها الناس ويتباهون ﴿إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الاخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ فكثرة الاموال والاولاد لايعجب الله ورسوله وإنما يعجب الكفار.

فهذه القاعدة كبروياً صحيحة، ولكنها لاتنطبق على المقام.

روايات العامة

وروايات العامة في سبب نزول الاية كلّها مرددة بين ضعف السند والارسال فيه، لانها تنتهي الى كل من انس بن مالك وابن عباس وعائشة، أما الاول فانه مدني لم يكن بمكة وقت نزول الاية وكان صغيراً أيضاً، وأما الثاني وعائشة فإما أن يكونا رضعين أو لم يولدا، ولو أن هذه السورة نزلت في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله لَمَا أنحصر رواية ذلك عن أناس لم يدركوا الواقعة، ولكان ابن ام مكتوم له في كل يوم مجلساً يذكر فيه سبب نزول الاية وأن الذي جاء رسول الله وهو يخشى ليس إلا هو، فهو الخاشع الساعي بنص القران الكريم وليس هناك وسام أشرف وأفضل من

أن يشهد القران لشخص بأنه خاشع ساعي نحو الايمان والتزكية والعمل الصالح .

هذا مع اختلاف الروايات في تحديد من كان الرسول صلى الله عليه واله يناجيه ، ففي بعضها أنه عتبة وشيبة ، وفي آخرى أنه جمع من وجوه قريش منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة ، وفي رواية ثالثة أنه عتبه والعباس وأبو جهل ، وفي رابعة أنه العباس وامية وصفوان ، وقد قيل بأن ابن ام مكتوم لم يجتمع مع المذكورين في مكة .

قال ابن العربي الفقيه : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس ، وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ماحضر معهما ولا حضرا معه وكان موتهما كافرين أحدهما قبل الهجرة والآخر ببدر ولم يقصد قط أمية المدينة ولاحضر عنده مفرداً ولا مع أحد الثلاثة (١).

مراجعات في عصمة الانبياء

ولقد صدر كتاب ضخم تحت عنوان «مراجعات في عصمة الانبياء» لبعض الكتّاب من الخاصة صنّف فيه إتجاهات المفسرين في سبب نزول الاية الى ثلاثة :

الاول : القائلون بعدم نزولها في الرسول ، وهم على فئتين :

---

(١) تفسير القرطبي : ج١٩/٢١٢ .

الاولى الجازمون بذلك، والثانية المرجحون في عدم نزولها في النبي مع إمكان كونها نازلة فيه.

الثاني: القائلون بنزولها في النبي صلى الله عليه واله، وهم أيضا على فئتين: الاولى الجازمون بذلك، والثانية المرجحون نزولها فيه مع إمكان كونها نازلة في غيره (١).

الثالث: المتوقفون والمحايدون.

ثم ذكر جماعة من المفسرين المرجّحين والقائلين بعدم نزولها في النبي صلى الله عليه واله، مع امكانية نزولها فيه من دون أن يمسّ ذلك بعصمته واخلاقيته، من هذه الجماعة الطبرسي في مجمع البيان، والسيد ابن طاوس والمجلسي ومكارم الشيرازي والسبحاني والسيد كاظم الحائري وغيرهم.

وما نسبه ـ الى هؤلاء المفسرين والمحققين من عدم الجزم بكونها نازلة في غير الرسول صلى الله عليه واله، وأن نزولها فيه له وجه ودليل علمي لكن الدليل الاقوى قام على عدم نزولها فيه ـ خلافٌ صريحٌ لظاهر كلماتهم، بل هم من الجازمين بعدم نزولها في النبي صلى الله عليه واله، وكونها نازلة فيه قولا افتراضياً لا دليل علمي له.

---

(١) من المرجّحين والقائلين بنزولها في النبي صلى الله عليه واله ابن ابي جامع العاملي والشيخ جواد مغنية والسيد محمد حسين فضل الله، أما السيد محسن الامين فقد جزم بذلك.

توضيح ذلك : إذ هذه السورة من الادلة التي تمسك بها جماعة من العامة والحشوية على عدم عصمة الانبياء والمرسلين ، فكان جواب الاعلام عليهم نفي نزولها في النبي صلى الله عليه واله لقطع أصل الاستدلال بها ، ثم البحث العلمي يقتضي التنزّل ومجارات الخصم في كونها نازلة في الرسول صلى الله عليه واله ، لالكون ذلك ممكناً وله وجه عند المستدل على عصمة الانبياء كما توهمه هذا الكاتب من الخاصة ، بل لسد جميع المنافذ التي توسل بها الخصم لاثبات عدم عصمة الانبياء في غير الوحي [١] .

والشاهد على ذلك أنهم ليسوا في مقام ذكر الدليل على نزولها في الرسول صلى الله عليه واله ، بل في مقام نفي أن يكون ذلك منافياً للعصمة على فرض أنها نازلة فيه صلى الله عليه واله ، بعد نفي أن تكون نازلة في النبي الاكرم صلى الله عليه وآله .

قال الطبرسي : بعد أن ذكر كلام الشريف المرتضى المتقدم في نفي نزول الاية في الرسول صلى الله عليه واله : فإن قيل فلو صح الخبر الاول [٢] فهل يكون العبوس ذنباً أم لا ، فالجواب أن العبوس والانبساط مع الاعمى سواء اذ لا يشق عليه ذلك فلا يكون

---

(١) اذ التوسل فقط بنفي كونها نازلة في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله لاينفع فحسب في افحام الخصم ، لامكانه أن يقول بان الاحاديث الصحيحة عندي دلت على أن نزول الاية كان في الرسول ، وإن لم تكن صحيحة عندك .

(٢) الذي روته العامة في نزولها في النبي صلى الله عليه واله وقد تقدم ذكره في مستهل البحث ، و «لو» للفرض .

ذنباً ، فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه واله ليأخذه بأوفر محاسن الاخلاق وينبه بذلك على عظم حال المؤمن المسترشد ويعرفه أن تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعاً في ايمانه ... [1].

فنجد أن الطبرسي رحمه الله ليس في مقام ذكر الدليل على صحة نزولها في النبي صلى الله عليه واله ، بل في مقام افتراض ذلك وأنه لا ينافي العصمة.

وقال ابن طاووس : هذا قول كثير من المفسرين [2]، ولعل المراد معاتبة من كان على الصفة التي تضمنتها السورة على معنى «إياك أعني واسمعي ياجارة» وعلى معنى قوله تعالى في آيات كثيرة يخاطب به النبي صلى الله عليه واله والمراد به أمته دون أن تكون هذه المعاتبة للنبي صلى الله عليه واله ، وإنما كان يعبس لأجل مايمنعه من طاعة الله ، وأين تقع المعاتبة على من هذه صفته [3].

قلت : وليس في كلامه مايدل صراحة على استوجاهه نزول

---

(١) مجمع البيان : ج ٤٣٧/٥ ، أما ماذكره في جمع الجوامع فهو عين رواية العامة ، فإن كان البناء هو الاعتماد على رواياتهم فلا بد من المتابعة مطلقاً لافي خصوص المورد ، إن قلت : يصح متابعتهم في ماهو مؤيد لرواياتنا ، قلت : هذا في ما اذا لم يكن هناك تعارض وتضارب بين الروايات ، ومعه فلا بد من المصير الى خلاف مارووه.

(٢) من العامة والحشوية.

(٣) مراجعات في عصمة الانبياء : ٤٦٥ نقلا عن سعد السعود لابن طاووس.

الايات في الرسول الاكرم صلى الله عليه واله، إذ فرّق بين كون الاية خاطباً للرسول وبين كونه هو المقصود، وتصريحه أن ذلك قول كثير من المفسرين لا يلازم تصويبه لهم، كما أن قوله في ذيل كلامه «وإنما كان يعبس ...» خارج عن موضع الكلام، إذ الذي يمنعه من طاعة الله ليس هو المؤمن الذي يخشى الله وإنما هو المشرك العابد للوثن، فهو صلى الله عليه واله يعبس في وجوه المشركين امتثالا لقوله تعالى ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وقوله ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وقوله ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ وقوله ﴿ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾.

وقال المولى المجلسي: أقول بعد تسليم نزولها فيه صلى الله عليه واله كان العتاب على ترك الاولى، او المقصود منه ايذاء الكفار وقطع أطماعهم عن موافقة النبي صلى الله عليه واله لهم، وذمهم على تحقير المؤمنين كما مر مراراً [1].

فقوله قدس سره «بعد تسليم» أي أنّا لانسلم وإنما نذكر ذلك من باب الفرض والتنزل، وهذا واضح لمن طالس وخالط كلمات الاعلام في الفقه والاصول والتفسير، فهو تسليم افتراضي لاقناع الخصم وإلقاء الحجة عليه ونقاشه في كل ماتمسك به من عدم حجية دليله من جهة ومن عدم افادة دليله مايبتغيه منه بعد تسليم

---

(١) البحار: ج١٧/٧٨.

حجيته من جهة أخرى.

فتوجيه المجلسي قدس سره بعد افتراضه نزولها في الرسول صلى الله عليه واله لايعني عدم رفضه لنزول السورة في النبي صلى الله عليه واله وقطعه بذلك، وهذا واضح جداً فيكف خفي عليه !!

وقال الشيخ السبحاني بعد أن نفىٰ كون الايات نازلة في الرسول الاكرم: وعلى فرض صحة الرواية الاولى لابد أن يقال: أن الرواية ان دلت على شيء فانما تدل على أن النبي صلى الله عليه واله كان موضع عنايته سبحانه ورعايته فلم يكن مسؤولا عن أفعاله وحركاته وسكناته فقط، بل كان مسؤولا حتى عن نظراته وانقباضه ملامح وجهه ... الخ [1].

وقال مكارم الشيرازي: وعلى فرض صحة الرأى الاول في شأن النزول ـ وفرض المحال ليس بمحال ـ فان فعل النبي صلى الله عليه واله والحال هذه لايخرج من كونه «تركاً للاولى» وهذا ماينافي العصمة للاسباب التالية ... [2].

فكونها نازلة في الرسول عنده من المحالات الوقوعية كما هو نص كلامه، لا أنه قول علمي له دليله الخاص فيمكن وقوعاً ان تكون الاية نازلة فيه صلى الله عليه واله، فذكره في فئة المرجحين في عدم نزول الاية في الرسول مع امكان نزولها فيه غفلة واضحة

(١) مفاهيم القران: ج١٣٣/٥.　　(٢) الامثل: ج٣٦٢/١٩.

جداً.

وقال السيد كاظم الحائري: لنفترض أن التفسير الاخر هو الصحيح، وهو أن الخطاب موجه الى رسول الله صلى الله عليه واله وأن الله تعالى عاتب رسوله ... فلنتأمل شيئاً ما لنرى ماهو الذنب الذي صدر من رسول الله صلى الله عليه واله [1].

وخلاصةً: عدم الدقة في تفهم كلمات الاعلام ولوازم المسائل المطروحة لديهم، **وعدم التفريق بين ماهو في مقام الافتراض والتنزل وماهو في مقام الاستوجاه**، هو الذي أدي الى اشتباه هذا الكاتب من الخاصة وعزوه ذهاب جملة من المحققين والاعلام الى إمكان نزول السورة في الرسول صلى الله عليه واله وان القول بذلك رأياً علمياً [2] ولكن هناك قول أقوى منه، مع أن ظاهر بل صريح كلماتهم أن القول بكون السورة نازلة في الرسول ليس بقولٍ علمي بل هو محض افتراض وتنزل ومجارات.

ولعمري: اتعاب النفس والجهاد بالقلم في سبيل نفي كل شائبة ومغمز مطلقاً عن ساحة الانبياء والمرسيلين والاولياء لهو أنجع وأنفع وأثوب وأفضل وأحسن من إثبات مايسمى «بترك الاولى» لبعض الانبياء والرسل بتأويلات وتوجيهات مختلفة ترجع في

(١) مراجعات في عصمة الانبياء: ٤٧٣ نقلا عن الامامة وقيادة المجتمع، والكتاب لايحضرني.

(٢) أي رأياً له دليله الخاص به، لكن هناك دليل أقوى منه، من قبيل تعبير الفقهاء «أن وجوب كذا وكذا له وجه، او لايخلو من قوة، إلا ان الصحيح كذا وكذا وكذا».

لبّها الى الخدشة في ساحة الانبياء والرسل في بعض الموارد الخاصة الجزئية التي لاتتنافى مع العصمة .

فالتأدب مع الانبياء والمرسلين وعلى رأسهم سر العالمين النبي الامّي صلى الله عليه واله يقتضي ويوجب علينا رفض كل مايشينهم عليهم السلام حتى وإن كان مايسمى بـ«ترك الاولى» أو تأويل المعصية بتأويلات باردة ظاهرها نفي المعصية عنهم ولبّها اثبات ذلك بوجه من الوجوه ، وأن لانتشبث في إثبات «ترك الاولى» لغير النبي الامي صلى الله عليه واله [1] بالاحاديث المرسلة والمروية عن حشوية العامة [2] .

ولا شك أن نسبة العبس والتولي لمن بعثه الله رحمة للعالمين والجزم أو ترجيح أن السورة نزلت فيه ـ بنظر الالمعي ـ منافٍ للتأدب وفيه جرأة واضحة ، والوجدان هو الحاكم .

كما أن من مقتضيات التأدب معهم عليهم السلام انتقاء الالفاظ والكلمات التي تتلاءم مع عظمتهم وقدسيتهم ، والابتعاد عن الالفاظ المجملة المتشابهة المطاطية القابلة للحمل على عدة من المعاني خوفاً من أن يفهم الناس خلاف ما هو المراد من المقصود من ترك الاولى ، وحتى لايقع الانسان في مصادمات ويورط نفسه

---

(١) إذ ترك الاولى كما تقدم في حقه خلاف عصمته المطلقة وكماله الاتم وخلقه الاكمل وعصمته العظمى .

(٢) بل لابد من دليل قطعي ولاتقبل أحاديث الآحاد .

في مشاكل مع من يتحمس لتنزيه الانبياء والمرسلين ونفي كل مايشينهم ويخدش في ساحتهم، وحتى لايضطر كذلك الى تفسير كلامه وتأويله وبيان مراده الجدي بما يتناسب مع ترك الاولى.

عصمنا الله وإياكم من الزلل والاشتباه وأخذ بأيدينا لما في الصلاح والفلاح وحشرنا مع زمرة الانبياء والمرسلين والشهداء والصديقين، وصلى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم من الاولين والاخرين الى قيام يوم الدين.

الفهرس

المقام الاول : البحث القراني

المقام الثاني : البحث الروائي